الإسلام وَتحريرُ العَبيد

ناصر مكارم الشيرازي



دار النبلاء



الإسلام وتحرير العبيد



الإسلام وَتحريرُ العَبيد

ناصِر مكارم الشيرازي

دار النبلاء

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

دار النبلاء
بيروت ـ لبنان ص ـ ب ١١/٨٦٠١
هاتف: ٨٣٧٨٢٦/مقسم ١١٤
فاكس: ٦٠١٠٠٥ ـ ١ ـ ٠٠٩٦١

بسمه تعالیٰ

ماذا تقرأ في هذا الكتاب؟

كثيراً ما يُسأل عمّا قدمته الأديان (الحقيقية لا المختلقة) من فوائد للبشرية؟.. وجواب هذا السؤال ليس بصعب علىٰ العارفين بمسيرة الأنبياء، لكن مثل هذا الكتاب الصغير لا يمكنه الإحاطة بالشرح الوافي لجواب هذا السؤال. ومع هذا سعينا للإشارة إلىٰ فائدتين من فوائد الدين وأوكلنا البقية إلىٰ كتاب آخر عنوانه «أهداف ظهور المذاهب» والذي هيئنا القسم الأكبر منه وسينشر قريباً إن شاء الله.

أما المسألتان اللتان ستطرحان في هذا الكتاب هما:

الأولى: كيفية تحرير العبيد في ظل الدين.

الثانية: الدور الهام للأديان في الحركات العلمية والثقافية والفلسفية.

آملاً أن تكون مطالعة هذا الكتاب لعامة الناس ـ خصوصاً الشباب المثقّف ـ مفيدة ومثمرة.

ناصر مكارم الشيرازي

القسم الأول

محاربة الإسلام للرِّق والعبودية

* هل أقرَّ الإسلام مسألة الرِّق؟

* خطة الإسلام الشاملة لتحرير العبيد.

إن من إحدى أوائل المجاميع التي آمنت برسول الله كما نعلم هم العبيد لأنهم كانوا ينشدون الحرية في الدين الجديد ويسترجعون شخصيتهم الاجتماعية في ظل هذا الدين.

لكن بعض الذين اعتادوا على أن يحكموا من بعيد يهاجمون الإسلام بقولهم بأن هذا الدين إذا كان ديناً إلهياً فلماذا أقرَّ الرِّق والعبودية وأقرَّ بذلك المصائب الناشئة عنها؟!

ومن هنا يركّز الماديون اتباع ماركس ـ الذين يدّعون بأنهم أكثر الناس اهتماماً بالمحرومين! ـ على هذه المسألة سيّما وأنهم يعتقدون أن من الممكن الاستفادة من هذا الموضوع بجعله شعاراً أعلامياً رابحاً لتشويش أفكار وأذهان الشباب المسلم وإضعاف الروح الدينية والإسلامية فيهم عن هذا الطريق.

ولإيضاح قيمة هذه الهجمات الضالة وبيان نظرية الإسلام بالنسبة لموضوع العبيد، لا بد أن ندرس المواضيع التالية:

أولاً: ما معنىٰ الرِّق والعبد؟

ثانياً: النظرة التاريخية للعبودية. (ملامح مسيرة العبودية في تاريخ البشر).

ثالثاً: نظرية الإسلام بالنسبة للرِّق والعبيد.

رابعاً: الاعتراض الأخير.

أولاً: معنىٰ الرّق أو العبودية

الرقيق أو العبد هو الإنسان الذي تكون جميع أفعاله الاختيارية بيد إنسانٍ آخر، فهو يباع ويشترىٰ كسائر الأمتعة إضافة إلىٰ أنّ مالكه له حق التصرف به كما يشاء.

ومثلما تختلف حدود اختيار وتصرف الناس في أملاكهم باختلاف الدائرة المحيطة والقوانين العامة والخاصة بهم، كذلك تختلف حدود تصرف المالكين للعبيد باختلاف الزمان والدائرة المحيطة وتتطوّر نسبةً لما تقدم أيضاً.

أن بعض الأمم يمتاز تعاملها مع العبيد بالخشونة والقساوة الزائدة عن الحد بحيث لا يعطونهم حق الدفاع عن أنفسهم. فالبعض من اليونانيين ـ مثلاً ـ يعتقدون أن لو هجم أحدهم علىٰ عبدٍ ما، فليس لهذا العبد إطلاقاً حق الرد (سواء كان ذلك مقابل سيده أو غيره) بل عليه أن يُهيِّيء نفسه للضرب والأذىٰ.

يقول الأسبارطيون: لو أنَّ شخصاً آذىٰ عبداً وشتمه فليس للعبد أن يشتكيه في المحكمة! ويقول «منتسكيو» مؤلف كتاب (روح القوانين إن العبيد الأسبارطيين كانت تعاستهم كبيرة بحيث أنّ كلّ عبدٍ هو عبد لكل أفراد المجتمع وليس لشخص واحد فقط، وكل شخص يستطيع أن يعذب عبده أو عبد غيره دون خوف من القانون! ومن هناك فإن المجتمعات التي تجد قتل العبيد بدون أي قيدٍ أو شرط ولا تضع فوارقاً بينهم وبين الحيوانات فليس هنالك معنىً لمراجعة المحاكم ورفع الدعاوىٰ.

وفي المقابل، قلَّ ما تجد قانوناً وُضِع لخدمة العبيد ومصلحتهم، فمثلاً أُلزِمَ «السيد» في الرومانية القديمة (استناداً لقول منتسكيو) علىٰ إعداد طعام ولباس غلامه في إطار القوانين المحدّدة، وحتىٰ في مرحلة الشيخوخة والمرض على السيد أن يحافظ على العبد.

لكن الجرائم المرعبة التي كانت تُرتكب تجاه العبيد في زمن العبودية في مختلف أنحاء العالم تجعل الإنسان يتشائم إلى درجة لا يمكنه التصديق بمثل هذه القوانين التي تُوضع في الظاهر لصالح العبيد في بعض الأحيان،

والواقع أنها تريد للعبد أن يعيش أكثر حتىٰ يُستفاد منه بصورةٍ أوسع، وحتىٰ لو كان القانون رفيقاً بالعبد فإنك لا ترىٰ لذلك أثراً عند التطبيق.

وبإيجاز نقول: مع كل الاختلافات والتطورات التي حدثت في موضع التعامل بين العبد والسيد علىٰ مرّ التاريخ فإنّ الرابط في كل ذلك هو ثابتٌ واحد هو «استثمار البشر بواسطة البشر» وهذا هو روح العبودية.

واليوم نرىٰ ـ أيضاً ـ أنّ لهذا المعنىٰ مصاديق كثيرة في المجتمع البشري الحالي وحتىٰ لو لم يُوضع ذلك الاسم عليه، فواضحٌ جداً أنّ مثل هذه الأبحاث تدور كلها حول محور العبودية معنىً وحقيقةً سواء كان أُطْلِقَ عليه اللفظ الخاص أم لا، فليس لذلك أي أثرٍ في أصل الموضوع.



ثانياً: النظرة التاريخية للعبودية

بداية مرحلة العبودية في تاريخ الإنسانية ليس واضحاً، وهذا يعني أننا لو رجعنا للوراء إلىٰ أبعد الأزمنة الممكنة، لوجدنا العبودية بأشكال مختلفة في المجتمعات البشرية ولكن بما أنّ العامل الأساسي للعبودية هو الهزيمة والأسر في الحروب ـ علىٰ أقوىٰ الاحتمالات ـ لذا أعتقد بعض المحققّين أنّ تاريخ العبودية يعود إلىٰ بداية الحروب بين الناس، بيد أنّ «المؤلف» يعتقد أننا لو حلّلنا الموضوع بصورةٍ أوسع فسوف نجد أنّ السبب الأساسي له هو وجود الشخص الضعيف والقوي مع روحية السيطرة والاستغلال في آنٍ واحد في المجتمع الإنساني، ولا نحتاج إلىٰ إيضاح أكثر لأن هذا المعنىٰ كان له وجوداً فيما بين أفراد القبيلة الواحدة إلىٰ ما قبل الحروب القبلية، ويتجلّىٰ الأمر عندما نرىٰ علماء الحقوق يَرَوْنَ أنّ أحد العوامل الأساسية الأخرىٰ للعبودية هو أنّ الفقراء المدينيين عندما يقعون تحت ضغط مطالبة الدائنين فإنهم يبيعون أنفسهم لهم (وكان هذا القانون شائعاً بصورة خاصة) وعلىٰ هذا كيف يمكن القول أنّ تاريخ العبودية يعود إلىٰ تاريخ بداية الحروب في المجتمع البشري؟!

لقد كانت العبودية قائمة الوجود إلىٰ حد نصف القرن التاسع عشر

الميلادي (أي قبل مائة وثلاثين عام تقريباً) ولكن بعد هذه الفترة بدأت حركة لإلغائها في كل أنحاء العالم، ولعل بريطانيا هي أول السابقين في هذا المجال، فبعد مدة قصيرة (في سنة ١٨٤٠م) أُلْغِيَ بيع العبيد حتىٰ في المستعمرات!

وكانت العبودية شائعة في فرنسا حتىٰ ثورة ١٨٤٨ وفي هولندا استمرت حتىٰ عام ١٨٦٣ ومن ثمّ مُنِعَ بيع وشراء العبيد.

وفي أميركا كان الأمر كذلك حتىٰ عام ١٨٦٠م ولكن من بعد تلك السنة حدثت معارك دامية حول هذا الموضوع بين أميركا الشمالية منها والجنوبية. وكان الجنوبيون أنصار تلك الحالة وذلك لشدة احتياجهم للعبيد في المزارع، لهذا كانوا علىٰ نزاع مع الشماليين الذين يَرَوْنَ أنهم مستغنون عنهم إلىٰ حدٍّ كبير. ودامت هذه المعارك أربع سنوات وسُمِّيَتْ فيما بعد بـ«المعارك الانفصالية» وانتهت لصالح الشماليين وأُلغِيَتْ العبودية في جميع أنحاء «أميركا»، وفي أواخر القرن التاسع عشر (أي قبل ٩٠ عاماً تقريباً) اتفقت جميع الدول علىٰ منع العبودية ومنذ ذلك الحين أصبح بيع وشراء العبيد ليس علنياً إنْ حدث.

ولكن لا بد أن لا ننسىٰ أنّ إيجاد الآلات والوسائل واقتراب المجتمعات واكتشاف الطاقات الجديدة التي ملأت مكان العبيد إلىٰ حدٍّ كبير، كان لها أثراً هاماً في إلغاء العبودية.



تغيير شكل العبودية

وفي نفس الوقت لا بد أن لا نتصور أنّ العبودية قد نُسِخَت وانتهت من هذا العصر فيما بعد، بل أنّ العبودية واستغلال البشر ـ مع كامل الأسف ـ عادت بصورة أخطر وأكثر رعباً مما كانت عليه وذلك علىٰ صورة «عبودية المستعمرات والشعوب»، أو ما اصطلحوا عليه بـ«الاستعمار»، ومع أنّ تاريخه يعود إلىٰ ما قبل تاريخ إلغاء العبودية، ولكننا نستطيع القول إنّ كل قدرة العبودية الفردية سائرة نحو الضعف والاضمحلال بعكس العبودية الجماعية

و«الاستعمار» الذي بدأت جذوره تقوىٰ وتصلب أكثر فأكثر، ولسوء الحظ أصبحت مصائب وويلات مرحلة العبودية الفردية متكررة بصورة أبشع في مرحلة الاستعمار!

وفي هذه المرحلة لم يعد استخدام اسم «العبودية» البغيضة عليها بعكس كلمة «الاستعمار» الجذابة والتي تعني ـ في الواقع ـ «السعي علىٰ طريق الإعمار» (في الظاهر إعمار الولايات الضعيفة وفي الباطن إعمار ممالك المستعمرين!) فحلّت محلها، ولكن لم تمضِ فترة حتىٰ كشف الاستعمار نقابه مؤقتاً عن صورته الحقيقية حيث نقرأ في قاموس «المختار» ما يلي:

«مصطلح الاستعمار ـ حالياً ـ يعني التدخل العدواني لدولةٍ قوية في بلدٍ ضعيف، واغتصاب أمواله وسحق حقوقه وإرادته، ويضيف: ويطلق علىٰ الدول الاستعمارية بالدول القوية التي وضعت بلدان الشعوب الضعيفة تحت سيطرتها في ظل شعار إعمارها»!

وينبغي الالتفات هنا إلىٰ أنّ الدول السبّاقة في موضوع إلغاء العبودية (كبريطانيا) كانت في المقدمة أيضاً في موضوع الاستعمار للأقاليم المعمورة ذات الخيرات الكثيرة (كإقليم الهند) الذي كان تحت سيطرتها، وكان أداء واجب العبودية الاستعمارية مفروضاً علىٰ الكثير من الشعوب الكبيرة العاملة علىٰ تأمين احتياجاتها!

إنّ صفحة علاقات الدول الكبرىٰ بالمستعمرات تُعدّ أحد أظلم وأسوء صفحات التاريخ، وإنّ شرح وبيان جرائم وجنايات الاستعمار (الجارية ـ حالياً ـ في بعض المناطق بشدة) ليزعج ويؤذي المتحدث والسامع معاً، ولكن اسمح لي ـ عزيزي القارىء ـ أن أُشير إلىٰ نموذج وجزءٍ يسير من ذلك الكثير الذي جلب أنظار أحباء البشر هذا اليوم (نقلتُ هذا المقطع من مسودة كتاب «الوحي أو الشعور الرمزي»).

ومن الأَوْلى ـ هنا ـ الاستماع إلى أقوال المستشرقين أنفسهم لنتعرف علىٰ طريقة تعامل الدول المتحضرة مع المستعمرات من ألسنتهم.

يقول الدكتور «گوستاولوبون» في كتابه (تاريخ الحضارة) فيما يتعلق بوضع الاستعمار في إقليم الهند:

«صحيح أنّ لندن أصبحت غنية الثروة وعامرة ولكن الأشخاص الذين أُخِذت منهم هذه الثروة أُصيبوا بأعلىٰ درجة من الفقر والفاقة» (لاحظ بدقة) ثم يضيف: «يوجد اليوم في ولاية «مدرس» ١٦/٠٠٠/٠٠٠ شحاذ بناءاً علىٰ الإحصاء الرسمي فقط! ولِمَ لا يكون كذلك في الوقت الذي يجب علىٰ أهالي الولاية العاجزين تسديد نفقات وزارة الحرب البالغة ٤٠٠/٠٠٠/٠٠٠ (ليرة علىٰ الظاهر)؛ وهكذا عليهم تسديد ٥٠/٠٠٠/٠٠٠ أخرى لنفقات سائر دوائر الدولة الأخرىٰ، وأخيراً عليهم إرسال ٥٠٠/٠٠٠/٠٠٠ خالصة للخزانة البريطانية بعد كل هذه المصاريف!!...

وعندما أُشيع موضوع هذه الخمسمائة مليون ليرة أجاب الانكليز عنها في إحدىٰ الصحف المعروفة جواباً مفحماً! ذلك أنّ هذا المبلغ هو أجرة الإدارة والحكومة المنظمة والآمنة التي أُوجدت لشعب الهند»!...

في حين، إنّ خسائر هذه الإدارة الآمنة والمنظمة! سنوياً من الجوع والفقر أكثر من خسائر حربٍ دامية بدون مبالغة!

ويقول «گراتديديه»: «إنّ طبقة الفلاحين والممتهنين لحرفة الزراعة التي تشكل الأكثرية هناك، كانوا يسدّدون سدس محاصيلهم بعنوان الضرائب عندما كان يحكمهم الإقطاعيون، ولكن عندما جاء الانكليز أصبح عليهم تسديد نصف المحاصيل (أي $\frac{٣}{٦}$)، وإذا امتنع أحدهم من تسديد هذه الضرائب تصادر أملاكه» ثم يضيف: «هذه الطريقة، وضعت الفلاحين في مهلكة ومسكنة أعلىٰ من التصوير»!

أما «هيندمان» البريطاني فقد أوضح بعد مطالعات كثيرة ودراسات وافرة حول شكل ودور الحكومة البريطانية في الهند بأن: «الانجليز قد وضعوا الأهالي تحت ضغط الضرائب الثقيلة التي تميتهم من الجوع من جهة، ومن جهة أخرىٰ فإنهم كسروا المصانع الداخلية وأجبروها علىٰ الانغلاق وذلك من أجل زيادة استيراداتهم» ثم توقّع توقعاً جميلاً فقال: «نحن نسير نحو حادثةٍ وفاجعةٍ فريدةٍ في تاريخ العالم»!... وفي الحقيقة ما الفاجعة الأعظم علىٰ بريطانيا من حركة مطالبة الهنود بالاستقلال وطرد تلك الامبراطورية العظيمة من الهند؟

وفي مكانٍ آخر يقول هذا الرجل البريطاني: «إنّ من جملة الأمور المرعبة هو أنّ ولايات الشمال الغربي كانت مجبرة علىٰ تصدير محاصيلها الزراعية إلىٰ الخارج في الوقت الذي هلك ٣٠٠/٠٠٠ نفر منهم من الجوع خلال بضعة أشهر».

وفي عام ١٨٨٧م هلك ٩٣٥/٠٠٠ نفر من أهالي ولاية «مدرس» فقط طبق التقارير الرسمية»! ـ جدير بالذكر أنّ «هيندمان» كان قد نشر تلك الإحصاءات في إحدىٰ الصحف الهامة آنذاك دون أن يوجّه لها أي نقد!

وهل للعبودية الجماعية مفهوم غير هذا؟ وهل كانوا يفعلون أكثر من هذا في مرحلة العبودية السوداء؟

وجميلٌ جداً أن نستمع إلىٰ الرأي حول هاتين المرحلتين من لسانهم، فالمستشرق السالف الذكر قال في إحدىٰ خطاباته وبصراحة «إن الانجليز تعاملوا مع شعب الهند معاملة ألف مرة أسوء من معاملة العبيد»!



وصفحة سوداء أخرىٰ من العبودية الجماعية والاستعمار والتي اعتبرها المستشرقين الأوروبيين أحد أحزن صفحات تاريخهم هي طريقة تعامل الأوروبيين مع دولة الصين. فيقول أحدهم بعد شرحه للجرائم المرعبة للمستعمرين في الصين: «ربما يأتي يومٌ تنال فيه أجيالنا القادمة جزاء أفعالنا الشقية هذه بأسوء شكل وينتقم الصينيون منهم»!

وفي الواقع كم تبيّن صحة هذا التنبأ وانضمت دولة الصين العظيمة إلىٰ صفوف أعداء الدول المعتدية والغاصبة وذلك بعد حركة وانقلاب شيوعي حدث فيها.

❀ ❀ ❀

والصفحة الأخرىٰ هي علاقات الدول «المتحضرة» مع الريفيين في أميركا ودول الأقياونوس بعد اكتشافها، ويكفي أن الدكتور «گوساولوبون» «يكتب» عنها قائلاً: «إنّ الوحوش (الريفيين) في أميركا والأقيانوس بالنسبة للشعوب المتحضرة والمتربية في أوربا كالأرنب للصياد!.. مثلما نرىٰ اليوم أنّ كل هؤلاء قد ذهبوا أدراج الرياح».

والمعاملة التي كانت تنتهجها «فرنسا» (زعيمة الحرية والحضارة والمتصدية لحركات التحرر) مع مستعمراتها في الشمال الإفريقي خصوصاً مع الشعب المسلم في «الجزائر» كانت مثالاً واضحاً للعبودية مع القساوة بشكل لا يحتاج إلىٰ بيان وتفصيل أكثر والأنكىٰ من كل ذلك سكوت العالم المتحضر قبال هذه الجرائم بحجة أنّ «مشاكل الجزائر تعتبر قضية داخلية بالنسبة لفرنسا».

❀ ❀ ❀

و«العبودية الحمراء» التي سقطت آثارها السيئة والمشؤومة علىٰ شرق أوربا صورة مرعبة أخرىٰ للعبودية الجماعية.

ومع أنّ اتباع النظام «الشيوعي» وأنصاره كانوا يعتبرون أنفسهم المدافعين الوحيدين عن حقوق الإنسان وحريته من قيود الأسر وأغلال العبودية، ولكن لا ريب فيما لو رفعوا غلاً عن رجل أنسانٍ ووضعوا بدله قيداً أقوىٰ وأكبر منه!

وبغض النظر عن وسائل الإعلام السياسية التي تروّج لهذا النظام وعليه، فإنّ القرائن الدالة علىٰ عدم امتلاك الناس للحرية وانعدامها في الولايات الشيوعية كثيرة وبالخصوص في الدول التابعة في سياستها لهذا النظام في أوربا الشرقية فإنّ هؤلاء ـ في الواقع ـ يعيشون نوعاً من الأسر والتقييد وهم ـ بالتأكيد ـ ليسوا أحراراً في تعيين مصيرهم ومقدراتهم؛ ولو صدقنا ما ينقل من الأخبار المرعبة والقضايا الخطيرة التي تحدث في مخيمات العمل الإجباري في روسيا وألحقنا بها التصفيات الوحشية والواسعة النطاق التي تحدث خلال فترات قصيرة في أجهزة نظامهم فإننا لا نستطيع أن نطلق اسماً علىٰ هذا النظام الاجتماعي غير «العبودية الجماعية»!

ولا شك أن البعض يعتقد بأنّ مرحلة الاستعمار ـ هي الأُخرىٰ ـ في دور الانقضاء والانتهاء والمستعمرات بدأت تعلن عن استقلالها واحدة بعد أخرىٰ، وسوف يأتي يوماً تكون فيه كل أشكال الاستعمار (الأسود والأحمر) قد ذهبت من الوجود ولم يعد لها أثراً في الواقع، ولكن الذي نستطيع قوله هو أنّ التغييرات والتحولات التي حصلت في الوضع الحالي سطحية

وظاهرية، وإنّ روح العبودية تتجسد بأشكال جديدة دوماً والفرق أكثر ما يكون في أسمائها وعناوينها، وما دام عنوان «القوي والضعيف» موجود في العالم من ناحية، ولم تأخذ تعاليم الإيمان والأخلاق دورها علىٰ أرض الواقع من ناحية أخرىٰ فإنّ هذا الوضع سوف يستمر، وسوف يأخذ «استثمار البشر بواسطة البشر» شكلاً آخراً ويلبس لباساً جديداً كل يوم!

❀ ❀ ❀

نظرية الإسلام حول العبيد

كما نعلم أن الإسلام ظهر في مجتمع كان العبيد فيه يعيشون في أصعب الظروف، وفي مجتمع لم يمنح النساء حق الحياة بل معروف بوأدهن فمن الواضح كيف يتعامل مع العبيد الذين لا يُعدّون من البشر.

وهكذا بدأ الإسلام بإصلاحات واسعة في قضية العبيد التي لم يكن لها أنصار ومؤيدون في ذلك الوقت، وهذه الإصلاحات الواسعة، كانت جزء من إصلاحات الإسلام الجذرية والشاملة لكل شؤون حياة الإنسان.

وبرنامج الإسلام الإصطلاحي حول العبيد يشمل مواد كثيرة نطرح هنا أهمها علىٰ نحو الإجمال:

المادة الأولىٰ: ـ أول الأعمال التي قام بها الإسلام لتحسين وضع العبيد هو اعتبارهم جزء من المجتمع البشري وبهذا الشكل قام بتوسيع دائرة الواجبات والتعاليم الدينية بشكل تشمل العبيد أيضاً كما تشمل الآخرين دون أي فرق وألغىٰ كافة الامتيازات التي كانت متعارفة فيما بين الناس وجعل ميزان التفاضل «التقوىٰ» والفضائل الإنسانية الأخرىٰ، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبَاً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[1] كما منحهم حق الشكوىٰ والمرافعة في المحاكم كسائر البشر.

المادة الثانية: إصدار أوامر كثيرة تتعلق بالرفق بالعبيد، ومداراتهم إلىٰ حدٍّ جعلهم شركاء ومساهمين في حياة ومعيشة سادتهم.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

يقول النبي الأكرم: «مَنْ كان أخوه تحت يده فَلْيُطْعِمْهُ مما يأكل وَلْيُلْبِسْهُ مما يلبس ولا تكلّفوهم ما يغلبهم فإنْ كلّفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»[1].

وورد عن علي بن أبي طالب أنه قال لخادمه «قنبر»: «أنا أستحي من ربي أن أتَفضَّل عليك، فقد سمعت رسول الله يقول: «ألبسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تأكلون»[2].

وعن الإمام الصادق أنه عندما كان يأمر غلامه، يلاحظ إذا كان ذلك ثقيلاً كان يقوم بمساعدته بنفسه[3]. ونظائر هذه الأقوال كثيرة.

المادة الثالثة: نظّم الإسلام برنامجاً شاملاً لتحرير العبيد وعتقهم وعلىٰ ضوئه يتمكن العبد من التمتع بنعمة الحرية خلال فترة تدريجية قصيرة (دون أي ردّ فعل سيء).

فهو من جانب أوصىٰ كثيراً بتحرير العبيد وشجّع علىٰ عتقهم حيث يقول الرسول الأكرم: «مَنْ أعتق مسلماً أعتق الله له بكل عضوٍ منه عضواً من النار». وقد تكرر نقل هذه الرواية بصيغٍ مختلفة.

وبالاستفادة من الوثائق المتوفرة نجد أنّ النبي كان يعتبر الإبقاء علىٰ عبدٍ صالح وعدم عتقه عملاً قبيحاً، كما أنه لو قام أحد غلمانه بعملٍ صالحٍ نراه يقول: «اذهب، فأنت حرٌّ، فإني أكره أن استخدم رجلاً من أهلَ الجنة»[4].

✓ وفي كتاب «الوسائل» يوجد باب يُستفاد من الأخبار والروايات الواردة فيه بأنّ العبد بعد قضاء سبعة سنوات من الخدمة يتحرر بشكل تلقائي سواء رضي مولاه بذلك أم أبىٰ[5].

(١) كنز العمال ج٩ ص٢، رقم ٣٥٠٠٩.
(٢) المستدرك ج٣ ص٣٩ الباب ١٣.
(٣) بحار الأنوار ج١٥ ص٤١.
(٤) وسائل الشيعة ـ كتاب العتق ـ الباب الأول.
(٥) وسائل الشيعة ـ كتاب العتق ـ الباب الثامن والعشرين.
(٦) الكافي ـ التهذيب ـ ثواب الأعمال.

وإضافة إلىٰ هذا، كانت الشخصيات الدينية الكبيرة تشجع الناس بشكل عملي علىٰ تحرير العبيد وعتقهم، فقد ورد عن أمير المؤمنين علي أنه كان قد حرّر أو أعتق ألفاً من العبيد من كدّ يمينه[1]!

❀ ❀ ❀

وإكمالاً لهذا الهدف وضع الإسلام ضوابط ومقررات بحيث حتىٰ لو لم يرضَ المولىٰ تحرير عبده دون قيد وشرط فإنه يتحرّر وفقاً لتلك الشروط، فمثلاً نرىٰ في الفقه الإسلامي أنّ هنالك نوعان من العتق المشروط، باسم «التدبير» و«الكتابة أو المكاتبة» ولهما أحكام تفصيلية.

و«التدبير» عبارة عن تحرير العبد بشرط وفاة المولىٰ؛ فبالوفاة يكون العبد حراً، و«المكاتبة» هو تحرير العبد بشرط دفع مبلغ (يكون عادةً أقل من قيمة العبد أو ما يساويه) وإذا عجز العبد عن ذلك وجب علىٰ حاكم الشرع دفعه من بيت المال من سهم الزكاة.

وهذه الضوابط كلها تشير إلىٰ الاهتمام الكبير الذي أولاه الشارع الإسلامي المقدس بموضوع تحرير العبيد.

❀ ❀ ❀

ومن جانبٍ آخر، نطالع في الكتب الفقهية[2] الكثير من الموارد التي يتحرر العبد ـ علىٰ ضوئها ـ تلقائياً أو بإجبار المولىٰ:

أولاً: الحرية التلقائية وفيها يحرّر العبد نفسه بنفسه وذلك في موارد:

١ ـ إذا أعتق المولىٰ جزء من عبده فإنّ ذلك يسري إلىٰ بقية أجزاءه ويتحرر العبد كله، وهذا الموضوع دليل علىٰ أنّ الإسلام يريد تحرير العبيد ولو بأسباب صغيرة وبسيطة!

٢ ـ إذا صار مالكاً لأبيه أو أمه أو أجداده أو أبناءه أو عمه أو عمته أو خاله أو خالته أو أخيه أو أخته أو أولاده أو أخيه وأخته فإنهم يصبحون أحراراً بشكلٍ تلقائي.

---

(١) راجع كتاب «الجواهر» النفيس ـ باب العتق ـ المجلد الخامس.

(٢) الوسائل ج١٦ ص٣٦ الباب ٣٦ ـ العتق.

٣ ـ إذا فقد العبد بصره أو أصبح شيخاً عاجزاً فإنّ حق المالكية يسلب من المولىٰ، وعلىٰ بيت المال تأمين احتياجاته.

٤ ـ إذا اختار العبد الإسلام وصار مسلماً قبل مولاه في زمن الحرب فإنّه يصبح حراً.

٥ ـ إذا قطع المولىٰ أُذن العبد وأنفه فإنّه يصبح حراً فوراً.

٦ ـ إذا صار للمولىٰ أولاداً من جاريته فإنه لا يستطيع بيعها مستقبلاً وعليه إبقائها والمحافظة عليها إلىٰ أن تتحرر من سهم أرث أولادها. ومن الطبيعي أنّ هذا الموضوع وسيلة لتحرير عدد كبير من العبيد.

٧ ـ إذا كان أحد الوالدين حراً والآخر عبداً فإنّ ابنهما سوف يكون حراً.

ثانياً: التحرير الإلزامي أو الإجباري ففي موارد كثيرة يجب علىٰ المسلم عتق العبيد «كالنذر» أو «كفارة الصيام» أو «كفارة القتل».

وبالاستفادة من هذا البرنامج الواسع والشامل والاهتمام الكبير الذي أولاه الإسلام لهذا الموضوع يكون قد هيأ أسباب ووسائل تحرير وعتق العبيد تدريجياً وبهذا سوف يحصل الجيل القادم وأبنائهم علىٰ الحرية بشكل حسن.

❀ ❀ ❀

وقد يتساءل البعض قائلاً: لماذا لم يصدر الإسلام قراراً قاطعاً وشاملاً بتحرير كل العبيد، وهذا النوع من التفكير فجٌّ وغير ناضج ونابع من انعدام التجربة في الأمور الاجتماعية؛ لأننا لو أخذنا بنظر الاعتبار الرواج الكثير والواسع للعبودية آنذاك واشتغال غالبية الناس ببيع وشراء العبيد، لرأينا أنّ إصدار مثل هذا القرار المفاجىء سيجعل عدداً كبيراً منهم عاطلين عن العمل دون ملجأ أو مأوىٰ، وواضح جداً أنّ هذا غير ممكن أبداً.

ومما يُثير العجب بعد هذه القرون المتمادية قضية إلغاء العبودية في أميركا، وذلك بسبب حرب دامية استمرت أربع سنوات راح ضحيتها الكثير؛ فمع هذا الوضع كيف يمكننا أن نصدق بعدم حدوث رد فعل شديد فيما لو

قام الإسلام بإلغاء العبودية دفعة واحدة في ذلك العصر الجاهلي المضطرب!

والقول: أننا لو أمعنا النظر، لوجدنا أنّ البرنامج الذي وضعه الإسلام لتحرير العبيد برنامج محكم ورصين وفعال، ومصون من كل ألوان ردود الفعل.



انعكاسات القضية عند الآخرين

وأرىٰ من المناسب ـ هنا ـ أن أنقل ما ذهب إليه المؤرخ المسيحي الشهير «جرجي زيدان» في كتابه «تاريخ التمدّن الإسلامي» في هذا المجال إذْ يقول:

«علىٰ أنّ الإسلام جاء رحمةً للأرقاء فأوصىٰ النبي بهم خيراً بقوله «لا تحمّلوا العبيد ما لا يطيقون وأطعموهم مما تأكلون» وقال «لا يقل أحدكم عبدي وأُمتي وليقل فتاي وفتاتي» وفي القرآن **﴿واعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين والجار ذي القربىٰ والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إنّ الله لا يحبُّ من كان مختالاً فخوراً﴾**[1].

أصول العبودية

والإشكال الأخير الذي يمكن أن يُؤخذ علىٰ الإسلام هو: صحيح أنّ الإسلام نظّم برنامجاً متكاملاً لتحرير العبيد؛ ولكن لماذا أجاز للناس الوسيلة لاستعباد الآخرين، وسمح ببيع وشراء أسرىٰ الحرب كعبيد؟!

هذا هو الشيء الأخير الذي يمكن أن يقال لنا ولكن لو لم نتسرّع في إصدار الحكم بل قمنا بدراسة وتحليل الموضوع مليّاً فسوف نرىٰ أنه مردود أيضاً.

ولا بد أن نعلم أنه ليس بإمكان الدول المتحضرة وأنصارها والسائرين

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ـ المجلد الثاني ص٣٢٧ .

في ركابها طرح مثل هذا الإشكال وإثارته؛ لأن معاملة هذه الدول ـ عند انتصارها في الحرب ـ مع الأسرىٰ، والقضايا التي نقلها البعض منهم بعد الإفراج عنه تكشف بوضوح عن أنها أسوء أشكال العبودية وإن لم يُطلقوا عليها هذا الاسم؛ فالدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية عاملوا المهزومين معاملة أسوء ممّا يعامل به العبيد عشرات المرات!

وهنا لا بد من الالتفات إلىٰ مسألتين:

الأولى: ـ لفهم وضع أسرىٰ الحرب؛ علينا أن نلاحظ مَنْ هو الطرف الآخر المحارب للإسلام وما هي أحكام الجهاد في الإسلام، وبشكل مختصر نقول: إنّ الجهاد في الإسلام ضد من لم يتوافق مع أحكام الله والحق والعدل، ولم يرضخ للمنطق القويم، لأنّ من الواضح أنّ الإسلام لا يحارب أحداً لأهداف سياسية خاصة أو مصالح اقتصادية، فالاختلافات القومية والجغرافية وتضارب مصالح الشعوب ليست مبرراً للحرب، وإنما الجهاد في الإسلام صراع بين «الحق» و«الباطل»، وبين «العدل» و«الظلم» علىٰ طريق حرية الإنسان.

ولو أُجريت أحكام الجهاد بدقة لم يبق في الطرف الآخر إلاّ مَنْ ليس له استعداد لقبول الحق بأي شكل من الإشكال ويرىٰ أنّ إجراء الأحكام الإسلامية العادلة لا يتفق مع مصالحه الشخصية، لذا فهو يساعد علىٰ اضطراب المجتمع وضلالة الناس، وباختصار:

ولو لم تنفّذ هذه الأحكام في زمن بعض الخلفاء بصورة صحيحة وأصبح بعض الأفراد عبيداً وخَدَمَةً ظلماً وجوراً فإنّ هذا لا يعود علىٰ الإسلام لأنّ بحثنا يرتبط بقوانين الإسلام وآثارها الاجتماعية.

ويكمن الخطأ عند مَنْ نختلف معهم في تصورهم أنّ ما يُجيز الحرب في الإسلام نظير ما بين الدول المتنازعة علىٰ أهداف سياسية واقتصادية. والحال أنّ الأمر ليس كذلك، فالحرب في نظر الإسلام تقوم علىٰ أسس وركائز أخرىٰ والتي على ضوئها.

الثانية: ـ علىٰ خلاف ما يتصوره البعض فإن استرقاق أسرىٰ الحرب ليس حكماً إلزامياً؛ بل علىٰ المسلمين أن يأتوا بالأسرىٰ إلىٰ حاكم الشرع أو

زعيم المسلمين بعد انتهاء الحرب (ولا يحق لأي شخص قتلهم!) ومع الأخذ بنظر الاعتبار مصلحة المسلمين من حيث الزمان والمكان يقوم قائد المسلمين بأحد ثلاثة أمور:

١ ـ إما أن يصدر أمراً بالإفراج عنهم بدون قيد أو شرط.

٢ ـ أو أن يصدر أمراً بالإفراج عنهم مقابل ما يدفعونه فيما لو رأىٰ صلاح ذلك.

٣ ـ أو أن يصدر حكماً باسترقاقهم وأخذهم عبيد فيما إذا اقتضت المصلحة ذلك.

ومثلما نلاحظ أنّ حكم الاسترقاق ليس حكماً إلزامياً بل يقبل المرونة وإذا اقتضىٰ الأمر يمكن أن يغض النظر عنه[1].

طبقاً لما يراه المفكرون الإسلاميون، فإن الحكومة الإسلامية موظفة بانتخاب ما فيه صلاح المسلمين من تلك الأمور الثلاثة. فمثلاً لو اقتضت الأوضاع في وقتٍ ما باسترقاق أسرىٰ الحرب (أي لم يمكن تربيتهم وإصلاحهم بغير هذا الطريق ولم يكن عندهم سجن أو موقف للحبس المؤقت بالصورة الحالية للمحافظة عليهم فإن هذا الحكم سوف يمكن تنفيذه. أما لو أخذنا الظروف الزمانية والمكانية بنظر الاعتبار ولم نشعر بضرورة ذلك وكان فيه ضرراً كما في عصرنا الحالي فإنه لا بد من صرف النظر عنه وانتخاب الحكم الأقرب للصلاح من الحكمين الآخرين)[2] وبالالتفات لهذا المعنىٰ سوف لا يبقىٰ إشكال حول أسرىٰ الحرب.

(١) راجع كتاب المسالك ـ المجلد الأول ـ كتاب الجهاد ـ الفصل المتعلق بأسرىٰ الحرب.

برنامج الإسلام حول العبيد

في الإجابة علىٰ السؤال القائل: ما هو برنامج الإسلام حول العبيد؟ وهل أجاز الاسترقاق والعبودية أم رفض ذلك؟ وهل هو من أنصار ومؤيدي حرية العبيد أم أنه يسمح باستثمار البشر بواسطة البشر؟ لا بد أن نقول بصراحة: إنّ نظرية الإسلام في هذا المجال واضحة لا غبار عليها، فهي تقوم علىٰ أساس الحرية التدريجية أي أنه نظّم برنامجاً يتحرر العبيد بموجبه تدريجياً وينضموا إلىٰ المجتمع، ولهذه المرحلة الانتقالية (انتقال العبيد إلىٰ دائرة المجتمع الإنساني الكبيرة) برنامج أيضاً تخلع العبودية ـ علىٰ ضوئه ـ شكلها السابق.

ولإيضاح هذا البرنامج يجب الانتباه إلىٰ ثلاثة أمور:

١ ـ الحرية أصل أساسي:

ومطالعة القرآن الكريم الذي يمثل نص القانون الأساسي للإسلام تبيّن بأنّ الإسلام بذل جهداً واسعاً لتحرير الإنسان في كافة المجالات؛ ومن الأمثلة علىٰ ذلك: تحرير فكر الإنسان من الخرافات كعبادة الأصنام والأوهام الأخرىٰ، وتحريره من النعرات القومية والقبلية وأمثالها، وتحريره من العبودية الجماعية كما أن في حكومة النمرود والفراعنة وأمثالهم؛ فقد بذل جهوداً واسعة ولهذا نرىٰ اليوم أن الشعوب المستعمرة تستعين بأحكام الإسلام وإرشاداته من أجل نيل الحرية.

فالإقبال الكبير لزنوج أميركا علىٰ الإسلام وانتشار أحكامه بين أفراد هذه الطبقة التي لم ترَ حقوقها المشروعة في ظل المنظمات العالمية الطويلة والعريضة وإسلام الدول الإفريقية المستعمرة بما في ذلك بعض رؤساء الجمهورية في تلك الدول (كرئيس جمهورية الغابون الذي أسلم أخيراً وأعلن

أمام المراسلين الصحفيين أنّ سبب ميله نحو الإسلام؛ روح الإسلام التحررية ومحاربته للنعرات القومية) وهكذا استخدام الشعارات الإسلامية في حركات التحرر كحركة تحرير الجزائر، لدليل حي على هذه الحقيقة.

وعلى هذا، لا يمكن التصور بأنّ الإسلام يرضى بـ«استعباد البشر بواسطة البشر» بشكل كلي، أو إنّه اختار السكوت تجاه ذلك ولم يجاهد لإلغاء العبودية.

والحديث المشهور المنقول عن أئمة المسلمين في هذا المجال لدليل واضح على ما قلناه حيث يقول: «شرّ الناس مَنْ باع الناس» وعليه فإنّ أسوء الناس مَنْ يسعى في استعباد البشر واسترقاقهم، وعلى هذه الفكرة يرتكز التصور الإسلامي لحرية الإنسان.

٢ ـ الحرية بلا رد فعل:

فقد يقدح في أذهان البعض السؤال التالي: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يعلن الإسلام عن الحرية المطلقة في يوم معيّن وساعة معيّنة؟ ولماذا أصبح العتق التدريجي هو المحور الأساسي الذي يدور عليه مشروع حرية العبيد في الإسلام؟

ولكن العارفين بحساسية المشاكل الاجتماعية يستطيعون فهم فلسفة هذا الحكم الإسلامي.

وللمثال على ذلك؛ كثيراً ما تقوم دولة بطرد رعايا دولةٍ أخرى نتيجة اختلافهما على مسألةٍ، فإذا كان عددهم قليلاً لم يهمّ الأمر، أما إذا وصل العدد إلى عشرات أو مئات الآلاف فإنّ ذلك يخلق مشكلة هامة جداً من الناحية الاجتماعية للبلد الذي طُرِدَ رعاياه وعادوا إليه، لأنّ هذا العدد الكبير سوف يكون عاطلاً عن العمل وما لم يلتحق بركب المجتمع فإنه سوف يولد أتعاباً كثيرة، من ناحية الخطر الذي يهدد حياة هؤلاء ومن ناحية الخطر المتوجه للمجتمع الذي لم يستوعبهم.

ولهذا لو كان النبي قد أمر بساعة ويوم معينين لعتق كافة العبيد، فإنّ عشرات أو مئات الآلاف سيصبحون بلا عملٍ ولا مأوى ولا ملجأ في مجتمع ذلك اليوم الذي ليست له القدرة والقابليةِ على استيعاب كل هؤلاء على خلاف اليوم.

وبالتأكيد فإن هذا الموضوع سوف يولد مشكلة اجتماعية خطيرة من ناحية العبيد الذين سيهلكون إضافة إلىٰ المجتمع الذي سيبقىٰ فيه هؤلاء العاطلين حيارىٰ تائهين.

وعلىٰ هذا الضوء - ووفقاً للأمر الإلهي - وضع الشارع الإسلامي برنامجاً تدريجياً لتحرير العبيد وضمّهم إلىٰ صفوف المجتمع، حتىٰ لا يكونوا غدةً سرطانية خطرة تضررهم قبل أي شيءٍ آخر.

ولهذا السبب، قام الإسلام - في البداية - بإغلاق كافة مناشىء العبودية، وقطع كل جذورها إلاّ أسرىٰ الحرب الذين لم يكن لهم حلٌّ آخر آنذاك (حيث لم تكن السجون معدّة لتقبّل الأسرىٰ في ذلك الوقت)، وحتىٰ في هذا المجال أعطىٰ الحكومة الإسلامية الاختيار في ترك استرقاقهم وأخذ الفدية أو المنّ وتحريرهم.

وبناءاً علىٰ هذا قام باستخدام كافة الوسائل الممكنة لعتق العبيد فاعتبر بيع العبيد عملاً قبيحاً ومشيناً؛ وجعل كفارة الكثير من الذنوب عتق العبيد ووضع طرقاً عادلة لتحريرهم كالتدبير والمكاتبة والاستيلاد (التي تمّ شرحها فيما سبق)، وأخيراً اعتبر عتق العبيد عبادة عظيمة ومن الأعمال المستحبة المؤكدة وبهذه الصورة عبّد الطريق نحو الحرية التدريجية.



٣ - رفع شخصية العبيد:

لا شكَّ أنّ برنامج «الحرية التدريجية للعبيد» سيتضمن مرحلة انتقالية يتهيأ خلالها العبيد للخروج من أوضاعهم السابقة إلىٰ المجتمع الإنساني الحر، وقد أخذ الإسلام هذه القضية بنظر الاعتبار فبذل جهوداً واسعة للحد من آلام العبيد ورفع شخصيتهم وتأمين رفاههم.

وفي هذه المرحلة، انجلىٰ عن العبودية المفهوم السابق الذي كان فيه العبد يساوي حيواناً ضعيفاً لا قدرة له، وأصبح عاملاً أو موظفاً لائقاً بل معاوناً وزميلاً لسيده في بعض الأحيان.

وكلّنا قرأنا في سيرة الإمام علي عندما وقف واشترىٰ ثوبين أحدهما

بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين وأمر غلامه الذي حرره «قنبر» أن يأخذ الأول وأبقىٰ لنفسه الثاني[1].

ونقرأ في سيرة الإمام السجاد أنّ أحد غلمانه نام في يوم صائفٍ حار وقد لاحظ علىٰ وجهه قطرات العرق فجلس الإمام إلىٰ جانبه وقّام بالتهوية له لينام براحة، وعندما استيقظ من نومه أوصاه بأداء واجباته والاستراحة أيضاً.

وتحدثنا سيرة الإمام علي بن موسىٰ الرضا بأنه عندما يضعون مائدة الطعام لا يأكل حتىٰ يأتي كل عماله وغلمانه.

أما رسول الله فقد كان مؤذنه والناطق باسمه خادمه الذي أعتقه بلال الحبشي.

ونتساءل هل يوجد في عالمنا المعاصر رئيساً يتساوىٰ مع عماله وخَدَمَته في الملبس والمأكل وسائر تشريفات الحياة الأخرىٰ؟ وهل كان للعبودية في هذه المرحلة الانتقالية ذلك المفهوم السابق؟ بل ألم يكن وضع العبيد أفضل وأحسن من وضع الكثير من عمال الدول الصناعية المتقدمة في عالمنا المعاصر؟ . . .

واستناداً لما تقدم يتضح مشروع الإسلام الإنساني في هذا المجال.

---

(١) الأئمة الاثنىٰ عشر/ هاشم معروف الحسيني ج١ ص٣٠٥.



القسم الثاني:

الإسلام والتقدم العلمي

الْهَدِيَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ

الهدف من هذا البحث المقتضب والقصير هو أن نرىٰ ما هي الهدية الكبرىٰ التي جاء بها الدين والمذهب كرسالة سماوية إلىٰ الإنسان؟ وما هي المكاسب التي حققتها هذه الرسالة؟ وما هي التغيرات التي يمكن أن تحدث في المجتمع وفي الفكر الإنساني؟. وقبل الإجابة علىٰ الأسئلة الآنفة الذكر لا بد من تعريف بسيط وواضح للدين والمذهب.

ولو أردنا أن نعرّف الدين والمذهب بشكلٍ سهل، لا بد من القول - وبعبارة قصيرة - أنّ:

«الدين هو مجموعة من العقائد والمفاهيم والأحكام والعادات والسنن، التي يجد الإنسان في ظلّها الكمال الإنساني، وتتكامل فيه الروح الإنسانية؛ وتشيّد حياته علىٰ أسس السعادة والسلام، ويستعد لحياةٍ أسمى وأرفع في عالم الآخرة» فمجموع هذه العقائد وتلك القوانين والآداب والسنن تشكل الدين والمذهب.

وقد قام علماء العقيدة والكلام بإيضاح مفهوم الدين في كلمات ثلاثٍ قصار، إذ قالوا أنّ الدين هو:

«التصديق بالجَنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان»[1] وهذه الأمور الثلاثة (أي الإيمان القلبي والإقرار اللساني والسلوك العملي) بمجموعها يطلق عليها الدين والمذهب.

والجَنان (بالفتح) لغوياً تعني القلب، بينما الجِنان (بالكسر) فهي جمع «جنة» بمعنىٰ بستان أو حديقة.

---

(١) المستدرك ٢/ ٢٧١.

ولا شك أنّ كل هذه الكلمات مشتقة من مادةٍ واحدة؛ فالجِنان والجَنان والجن والجنة والجنون كلها بمعنىٰ «الاستتار»، لأنّ كل واحدة منها تتناسب مع مفهوم الإستتار والمستور.

وهكذا أطلق علىٰ الجنين اسم «الجنين» لأنه مستتر ومخفي في عالم الرحم، وسُمّيت الحديقة بـ«الجنة» لأنّ أرضها أُخفيت تحت الأشجار، وقيل للمجنون مجنوناً لأن عقله استتر وحجبه غشاء أو حائل، وكذلك يُقال للقلب «جَنان» لإستتاره في صدر الإنسان، وللموجود الذي لا يُرىٰ «جنّ» لأنه مخفي عن الأنظار.

وإذا أردنا أن نتعمق قليلاً في دراسة هذا الموضوع لنبيّن المفهوم الأكمل للدين والمذهب فلا بد أن نقول: إنّ حقيقة الدين والمذهب هي التسليم المطلق لله تبارك وتعالىٰ.

فحقيقة الدين تكمن في هذه العبارة؛ أي التسليم المطلق أمام الله وأمام أمره جلّ شأنه، وبمعنىٰ آخر أنّ حقيقة الدين والمذهب هي: التسليم لواقعيات عالم الوجود وحقائق عالم الوجود، فلو أنّ شخصاً ما سلّم قبال حقائق وواقعيات عالم الوجود فإنه بذلك سيبلغ حقيقة الدين والإيمان.

وأود إيضاح ما تقدم بإسهاب أكثر لذا أرجو الانتباه بدقة إلىٰ ما يلي:

الدين هو تسليم الروح والجسم للحقائق الواقعية لعالم التكوين، ولكي تتضح علة تفسيرنا للدين بهذا الشكل لا بد من الرجوع إلىٰ جذور هذا الموضوع فنقول:

إنّ القوانين السماوية التي تضمنتها الأديان والمذاهب التي جاء بها الأنبياء من جانب الباري عزّ اسمه للناس وتكاملت بمرور الزمن لهي - في الواقع - حلقة مكملة ومتممة لقوانين الخلقة، أي أنّ الأحكام والتعاليم الدينية والمذهبية ليست منفصلة عن عالم الوجود والتكوين، وكل الموجودات في عالم التكوين تتكامل وتتربىٰ من خلال القوانين التشريعية لأنبياء الله؛ فالأنبياء أرادوا بتعاليمهم وببرامجهم وسعيهم أن تصل البشرية للهدف المنشود من قوانين عالم الوجود والتكوين.

وليسمح لي القارىء العزيز لذكر مثال بسيط في هذا المجال لإيضاح الموضوع:

فالإنسان أحد مفردات حقائق عالم الوجود، وقد أُودعت فيه مجموعة من الغرائز والميول والدوافع الجسمية والروحية الخاصة به، وإحدىٰ هذه الغرائز: الغريزة الجنسية، أي أنّ الله عزّ وجلّ أودع هذه الغريزة في وجود الإنسان والحيوان وذلك لديمومة النسل بصورةٍ تلقائية. والآن لنرىٰ ما هي نظرة الدين حيال الغريزة الجنسية؟ هل يمكن أن يقوم الدين بمحاربة الغريزة الجنسية كما هو الحال بالنسبة لجهاز الكنيسة والكهنة المسيحيين في هذا العصر الذين يرون حتمية محاربة الغريزة الجنسية وأنّها علامة الشيطان بل أنها تمثل الشيطان في الكائن الإنساني!

ومثلما يعتقد القساوسة الكاثوليك من حرمة زواجهم ويحاربون الغريزة بشكلٍ عملي ويقولون أنّ القسيس لا يصبح قسيساً متكاملاً ما لم يترك البحثَ عن الغريزة الجنسية! فهل يستطيع الدين أن يقوم بهذا الأمر بشكلٍ حقيقي؟

وبالتأكيد لا، وذلك لأنّ التعاليم الدينية جاءت لتكمل قوانين الفطرة وجهاز تكوين الإنسان.

فلو وجدنا نظاماً يحارب الغريزة في وجود الإنسان بصورة تامة لا بد أن نعلم أنه اختلاق العقل البشري وأنه ليس قانوناً سماوياً، فالنظام الرباني وأقسامه المختلفة لا يقبل التضاد والتناقض.

وكما أن الخلق لله فإنّ الدين والمذهب كلاهما لله أيضاً، والنظامان المرتبطان بالله لن يتضادا أبداً، ولهذا نرىٰ أن برامج الإسلام لم تأمر بمحاربة الغريزة الجنسية بشكل كامل علىٰ الإطلاق، بل اعتبر القانون الجنسي والغريزة الجنسية أحد السنن الكونية في حياة الإنسان ومن هنا جاء قول النبي: «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1] ولكنه يمنع من انحراف هذه الغريزة وطغيانها وفسادها، وخلاصة القول أنه يعمل علىٰ تقويمها وترشيدها وتربيتها لإيصالها إلىٰ الهدف المنشود.

ولا بد أن تكون كل السنن الدينية بهذا الاتجاه أي تربية الأحاسيس والمشاعر والغرائز والمتبنيات وكل ما يتعلق في وجود الإنسان وعالم التكوين

---

(١) جامع الأحكام الشرعية ـ السبزواري.

والخلق وفي كافة المجالات الأخرىٰ سوف نجد أنّ هذين النظامين بعضهما يكمّل البعض الآخر.

علىٰ هذا الأساس جاءت التشريعات المذهبية لتكمّل نظام بناء وجود الإنسان أي لتنظيم عملية تربية البشر وإيصاله إلىٰ آخر مراحل التكامل علىٰ طريق السعادة (انظر بدقة)، إذن كانت القوانين الدينية والسماوية مكمّلة لروح الإنسان وجسده بل وسائر قوانين الوجود.

ولو أنّ أحداً يقول إنّ علينا أنْ نمتلك الإيمان بالسنن الدينية والقوانين المذهبية فإن ذلك يعني ـ في الواقع ـ الإيمان بالقوانين الحقيقية لعالم التكوين، وحقيقة هذا الإيمان هي تسليم الإنسان تجاه هذه الحقائق الواقعية لعالم الوجود والتكوين.

لكن ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ التسليم تجاه حقائق عالم الوجود يعني الإيمان والاعتراف الرسمي بها، والتسليم القلبي والروحي والفكري تجاهها والعمل علىٰ ضوئها؛ وهذا ما نطلق عليه: «العقيدة».

وإحدىٰ حقائق عالم الوجود حقيقة «مبدأ عالم التكوين»، والتسليم تجاه هذه الحقيقة يعني الإيمان القلبي والروحي بوجود الله عزّ وجلّ.

فالإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ يعني الإقرار والتسليم تجاه حقيقة واحدة في عالم الوجود والتكوين، وبما أنّ شرائع الأنبياء والرسول وتعاليمهم متمّمة لقوانين التكوين فإنّ الإيمان بهم يعني الإيمان بحقائق عالم الوجود.

وإذا فسّرنا الدين والمذهب بهذا الشكل وقلنا: إنّ حقيقة المذهب تعني تسليم الروح والجسد مقابل حقائق عالم الوجود والتكوين فإنّ ذلك يوضح جليّاً علاقة وارتباط الدين بالعلم بشكل رائع وعميق، وفي الواقع أنّ أصل وروح المذهب يكمن في هذه العبارة.

والعجيب أنّ القرآن المجيد ـ كتابنا السماوي العظيم الذي جاء بأرفع وأسمىٰ العلوم للإنسانية حقاً ـ يفسر الدين بالشكل المتقدم فيقول: **﴿إنَّ الدينَ عِنْدَ الله الإسْلام﴾**[1].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

فالإسلام يعني «تسليم» الروح والجسد والفكر قبال الله تبارك وتعالىٰ والتشريعات الإلهية وحقائق عالم التكوين والوجود تجاه الحق والعدل.

والتسليم لشيء يستلزم الاعتقاد به؛ فتسليم روح الإنسان هو نفس اعتقاده، وتسليم جسد الإنسان يعني العمل بالأحكام والتشريعات والتسليم باللسان هو الاعتراف به، فكل المعاني التي ذكرت مكنونة في هذه العبارة.

بهذا نكون قد أتممنا بحثنا بشكل مقتضب جداً؛ واستنتجنا أنّ حقيقة الدين هي الإقرار والتسليم للذات الربانية المقدسة والأحكام الإلهية وقوانين عالم الوجود والتكوين واستخدام هذه القوانين والاستفادة من هذه الإمكانات بشكلٍ منطقي وسليم.



المذهب في التاريخ البشري

لو تساءلنا وقلنا: هل كان لهذه الحقيقة (المذهب) مكانها الخاص علىٰ مر عصور عالم الإنسانية أم لا؟

وبشكل أوضح: هل يمكننا أن نشير إلىٰ عصرٍ وجد فيه الإنسان ولم يكن للمذهب وجود علىٰ طول تاريخ البشرية ومرحلة ما قبل التاريخ؟ وهل يصدق القائلون اليوم نحن لم نختار مذهباً لأنفسنا، فهل حقاً أنهم ليس لهم أي مذهب؟ أم أنّ المذهب كان موجوداً منذ أنْ وجد الإنسان وسوف يبقىٰ علىٰ الدوام؟..

بصراحةٍ نقول: أنه لا يمكن تصور ماهية الإنسان دون أن تتبادر إلىٰ الذهن فكرة الدين والمذهب؛ فالإنسان لا يستطيع أن يتحمل الفراغ المذهبي في وجوده أبداً، ولهذا فإننا إنْ أمعنا النظر علىٰ طول مراحل التاريخ البشري لَمَا وجدنا زمناً وُجِدَ فيه الإنسان دون وجودٍ للمذهب. لماذا؟ لأنّ الإنسان جزء من هذا النظام الكوني ومرتبط به، وكما أنه علىٰ صلةٍ بهذا النظام من ناحية تكوين الجسد والروح لا بد أن يكون له ارتباط أيضاً من ناحية العقيدة ومنتمياً لمذهبٍ ما. ولهذا لا يمكن أن نتصور زمناً كان للإنسان وجود دون المذهب.

ونعود إلىٰ تاريخ البشرية ونسأل متىٰ كانت بداية هذا التاريخ؟.

يقول علماء التاريخ وخبراء علم الاجتماع أنّ تاريخ الإنسان ابتدأ من قبل ستة آلاف عام في بلاد «مصر» ومن ثمَّ «كلده» و«آشور».

فأساس التاريخ البشري يعود إلىٰ الزمن الذي بدأت فيه الكتابة أو العصر الذي برزت فيه الحياة المدنية إلىٰ الوجود ونجت بعدما كانت تعيش الحقارة والتشتت.

ولو قمنا بحساب الفترة الزمنية لكلٍ من القضيتين السابقتين لوجدنا أنه مضىٰ علىٰ التاريخ البشري ستة آلاف عامٍ تقريباً، ومن ثم نطالع كافة الوقائع التاريخية التي ثُبّتت خلال هذه الستة آلاف سنة ومن بينها التواريخ غير الإسلامية.

فمثلاً، نجد في تاريخ «البرمالة» الذي ذكر هذه الفترة بشكل مقتضب أنّ آثار المذهب موجودة في كل المجتمعات الإنسانية بشكل عميق، منذ اللحظات الأولىٰ للتاريخ البشري، فالتاريخ الذي صنعه المصريون ـ باعتبارهم أول المجتمعات البشرية في العالم ـ ومن بعدهم الكلدانيون والآشوريون، كان علىٰ صلةٍ وثيقة بالمذهب.

أما مرحلة ما قبل التاريخ التي قد تمتد إلىٰ مئات آلاف السنين التي مضت علىٰ البشرية وكان الإنسان موجوداً بينما التاريخ لم يبتدأ بعد، نرىٰ في ذلك الوقت أنّ آثار العبادة والعقيدة موجودة فيما بين البشر فتوجد الآن بعض الغارات الباقية منذ عشرات آلاف السنين وقد رسم علىٰ جدرانها صور الحيوانات بصورة حية وجميلة جداً.

وكذلك يتصور أنّ الإنسان الموجود في ذلك الكهف كانت له حالة العبادة تجاه هذه الصور بيد أنّ أفكاره لم تكن تتجاوز دائرة الحس آنذاك فكان يبحث عن الإله في دائرة المحسوسات، فأصل اعتقاده بالله كان في وجوده ولكن اعتقاده هذا كان منحرفاً.

وقد كان يشتبه حينما يرىٰ أنّ الله موجود محسوس وحي له دور هام في حياته. لذا كان يعبد الشمس مرةً وأخرىٰ القمر وثالثة النجوم وفي بعض الأحيان الحيوانات المختلفة.

وبناءاً علىٰ هذا فإنّ العبادة والمذهب كانا موجودين آنذاك ولكن علىٰ شكل خرافات مملوءة بالأوهام وذلك لقلة معرفة وإطلاع الإنسان في مجال عالم التكوين.

ونترك هذه الفترة الزمنية ونتصفّح تاريخ البشرية فإننا سوف لن نجد زمناً فيه كان للفراغ المذهبي وجود بل كان للدين والمذهب ـ وعلىٰ الدوام ـ مكانه الخاص فيما بين البشر.

وهنا قد يسأل أحد القراء المحترمين السؤال التالي: إنكم إنْ تقولوا أنّ الإنسان لا يستطيع تحمّل الفراغ المذهبي في حياته فلماذا يوجد الآن في الدول الشيوعية أشخاص كثيرون لا يشعرون بهذا الشيء في أنفسهم؟! وبناءاً علىٰ هذا كيف استطاعوا تحمّل ذلك (أي وجود الإنسان بدون المذهب)؟...

لكن هنا لا بد من القول وباختصار أننا نخطأ إن تصورنا وجود أفراد لادينيين حقاً وسط الأنظمة المادية والإلحادية والشيوعية، فهؤلاء تركوا الله عزّ وجلّ وعبادته ولجأوا إلىٰ أحد أنواع «عبادة الأصنام» بصورة عملية ولهم أعمال ومناسك كأعمال اتباع المذهب تماماً.

وعلىٰ سبيل المثال: يقوم الشيوعيون بإداء مشاعر الاحترام تجاه تمثال «لينين» أو قبال أفكار قادتهم «ماركس» و«انجلز» مثلما يفعل اتباع المذاهب تجاه قبور الأنبياء والكتب السماوية تماماً! أي أنه ـ في الواقع ـ نوع من أنواع المذهب ولكنه علىٰ شكل عبادة الصنم والإنسان، فهؤلاء اتخذوا مذهبه بهذه الصورة والهيئة!

ولننظر الآن بدقة إلىٰ نموذج من الأفكار الدينية والمفاهيم المذهبية وندرسه ـ علىٰ سبيل المثال ـ فسوف نجد هذه الأفكار والمفاهيم موجودة أيضاً في أوساط الشيوعيين الذين لا يعتقدون بالمذهب، منها: أننا نعتقد عدم جواز وضع البدع في المذهب، فمثلاً: لا يجوز تبديل الصلاة أو أحكام الإسلام أو أصوله الأساسية، وهكذا لا يجوز تغيير أو تبديل كل ما كان للإسلام فيه حكم ورأي إلىٰ شكل آخر، فهذا ما نسميه بالبدعة ووضع البدعة حرام ولم يسمح به الشارع المقدس.

بناءاً علىٰ هذا لنأتي إلىٰ الأحزاب الشيوعية التي استفادت من هذه المسألة في موضوع أفكار «ماركس وانجلز» حيث يقال أن الشيوعيين «الصينيين» يشنّون الآن أوسع وأكبر هجوم ضد الشيوعيين «الروس» وإن أكبر نقطة ضعف استغلّوها ضدهم هو أنهم يقولون «اذهبوا يا رواد إعادة النظر»!

أنتم أعدتم النظر في أفكار ماركس وانجلز.

فما معنىٰ ذلك؟

هل أنّ أفكار ماركس وانجلز لا بد من قبولها بدون زيادة أو نقصان؟

وهل أنّ إعادة النظر والابتداع وتغيير بعض الأسس إلىٰ شكل آخر يعتبر إثماً؟!...

نعم، فإعادة النظر ليس صحيحاً من وجهة نظر الفرد الشيوعي.

علىٰ هذا الأساس فإنّ ما نسميّه ـ نحن ـ «بدعة» قد سمّوه «دعوة إعادة النظر»، (علىٰ أننا ليس لنا علاقة بالجوانب السياسية للموضوع بل تحليله من الناحية العلمية والفلسفية).

ولننظر مرةً أخرىٰ إلىٰ أنّ من بين الأمور التي تضمنتها الشرائع السماوية هو أنّ الوحي السماوي من قبل الله عزّ وجلّ معصوم من الخطأ، لماذا؟

لأنه من جانب الله والله عزّ وجلّ لا يشتبه، لذا فالأنبياء الذين يُوحىٰ إليهم من خلال الوحي السماوي معصومون أيضاً، ونحن نرىٰ أنّ أولئك يتعاملون مع المبادىء الشيوعية معاملة الوحي السماوي الذي لا يخطأ، فمثلاً يقولون: لا بد أن تحفظ «إصالة الشيوعية» بشكل كامل، ولا بد أنْ لا يوجد أكثر من حزب واحد في الدول الشيوعية، وعلىٰ كل من يولد في ذلك المحيط أن ينتمي لهذا المذهب، لماذا؟ لأن هذه المبادىء ليس فيها اشتباه وعليكم أن لا تتعبوا أذهانكمْ في البحث علىٰ نقاط الضعف فيها لأنها خالية من الخطأ وعلىٰ كل من في هذا المحيط اتباع هذا الحزب وهذه المبادىء.

وهنا نتساءل: ألم يكن «ماركس» و«انجلز» و«ماو» و«لينين» والآخرين منا ـ نحن البشر ـ؟

أَلا تحتملون أنّ هنالك أفكاراً فيما بين الجيل الحاضر أقوىٰ من أفكار هؤلاء؟!

أَليس ممكناً أن نجد أشخاصاً أكثر تفكراً وأعمق منهم؟ ما المانع من إكمال أسس نظريات أولئك؛ وإعادة النظر فيها؛ وتصحيح أخطاءها، وإيصال رسالتهم إلىٰ مستوىٰ التكامل؟ فلو تساءلنا هكذا لقالوا أنتم أصبحتم «مرتدين حزبيين»، فهؤلاء يطلقون هذا الاسم علىٰ كل من ينادي بـ«إعادة النظر» كما هو الحال بالنسبة لاتباع المذهب الذين يسمّون المرتد بهذا الاسم مع فارق القياس.

لهذا نلاحظ أنّ هؤلاء يتعاملون مع قادتاهم ومنظّريهم كما نتعامل ـ نحن مع الوحي السماوي والكتب السماوية والأنبياء وأفكارهم، وعليه فإنّ هؤلاء ـ في الواقع ـ قد اتخذوا لأنفسهم مذهباً أيضاً، سوىٰ أنهم لم يرضوا بعبادة الله عزّ وجلّ مذهباً لهم فاستبدلوه بعبادة البشر!

خلاصة هذا القسم:

ولأنّ البحث لم يكن مبنياً علىٰ هذا القسم لذا أردت بيان ما استنتجناه هنا ونمرّ منه أيضاً، وهو:

بما أنّ المذهب مرتبط بالتسليم أمام حقائق عالم التكوين والوجود فإنّه موجود منذ اليوم الأول لحياة الإنسان وسوف يبقىٰ إلىٰ الأخير، وإنّ الإنسان لن يستطيع تحمل الفراغ المذهبي في حياته، وهو بالنتيجة سوف ينهج مذهباً بشكلٍ ما، سواء كان المذهب نقياً متكاملاً اقتفىٰ أثره، أو لم يكن حاوياً علىٰ تعاليم وتربية سليمة فإنه من الممكن أن ينتخب مذهباً علىٰ شكل عبادة الأصنام (القديمة أو الحديثة)، أو علىٰ صور مختلفة وبقوالب وهيئات أخرىٰ.

وكلمة أخرىٰ لا بد من التذكير بها هنا، خصوصاً، أنّ الشباب الأعزاء يسألون عنها كثيراً في رسائلهم لنا وهي: أنتم تقولون أنّ لكل عالم ومحقق ومفكر بل كل إنسان لا بد أن يكون له مذهباً، وعلىٰ هذا لا يوجد ـ في العالم ـ شخص مادي بالمعنىٰ الحقيقي للكلمة، ومع أننا نرىٰ فيما بين فلاسفة العالم حتىٰ غير الشيوعيين، وفيما بين العلماء والمحققين في العلوم

الطبيعية أفراداً كثيرين لا يعتقدون بأي إلهٍ كان، كيف تدّعون بأنّ المذهب موجود في حياة الإنسان وسوف يبقىٰ علىٰ الدوام؟

لكننا نعتقد أنّ الكثير من هؤلاء يعتقدون بالله دون الصنم، فلو أمعنا النظر بصورة جيدة لوجدنا أنّ هؤلاء يقولون: نحن عند تشريح جسم الإنسان وتقطيعه للدراسة والبحث لم نحصل علىٰ الإله.

والإله ـ هنا ـ بمعنىٰ الصنم، لأن الإله لو تمثّل علىٰ هيئة جسم في بدن الإنسان وأحس باستعمال سكين التشريح وصالة العمل وأُدخل المختبر علىٰ هذه الحالة فإنه ليس إله وإنما نوع من الآلهة الصنمية.

ولهذا، فإنه حين يقول أنني لم أحصل علىٰ الله في صالة التشريح وفي المختبر يعني بذلك أنه لم يجد الصنم وإلاّ فهو يعتقد بوجود الله، أين؟

في ذلك المكان الذي يقول عنه أنّ الطبيعة عملت كذا وكذا، والصفات التي وصف الماديون الطبيعة بها هي كل الصفات التي نعتقدها لله عزّ وجلّ، وإنْ لم تصدّقوا أضرب لكم أمثلة بسيطة علىٰ ذلك:

لماذا نملك كليتين؟

كتب أحد العلماء أن إحدىٰ آيات الطبيعة هي أنها وهبت الإنسان كليتين مع أنه يستطيع العيش بكليةٍ واحدة، والتجارب أثبتت ذلك عدة مرات بأن يعطي إنسان سالم إحدىٰ كليتيه إلىٰ إنسانٍ آخر من دون أن يصيب الأول ضرر بل أنّ الذي توقفت كليتاه عن العمل استطاع العيش بواسطة الكلية التي أُخذت له من الإنسان السالم فضلاً عن الذي أعطى كليته. إذن إذا كان الإنسان يستطيع العيش بكلية واحدة فلماذا وهبه الله كليتين؟

وهذا العالم المادي نفسه أجاب بالقول: إنّ الطبيعة فكّرت في المستقبل ووضعت للإنسان كلية احتياطية أخرىٰ ـ أي مثلما تحتاج السيارة ـ عندما تسير في الصحاري ـ إلىٰ إطار إضافي علىٰ الأقل كي لا تبقىٰ وسط الصحراء، فإنّ الطبيعة أيضاً أعطت الإنسان كليتين بدلاً من واحدة حتىٰ لا يبقىٰ حائراً وسط صحراء الحياة، فإذا أصبحت أحداهما عاطلة عن العمل استطاع العيش بالأخرىٰ، أو أهداها لشخصٍ آخر وأنقذه من الموت!

من خلال هذه العبارة نلاحظ جيداً أنهم نعتوا الطبيعة بصفات العقل والشعور والتدبير والهدفية والتخطيط الدقيق للمستقبل والعلم والمعرفة الكافية، فهل أنّ أحداً يتصف بهذه الصفات إلاّ الله عزّ وجلّ؟ وهل أنّ العوامل الفاقدة للعقل والبعيدة عن كل إدراك وشعور تملك هذه الصفات؟ . .

مثال آخر:

لماذا وهبت الطبيعة للإنسان معدة حجمها أكبر من مقدار احتياجه؟

ذلك لأنّ هنالك بعض الأفراد قد أُصيبوا بمرض القرحة في معدتهم وعندما أُجريت لهم عملية جراحية رُفِعَتْ نصف أو ثلث معدتهم وواصلوا حياتهم بالجزء المتبقي منها، ومن هنا يتضح أنّ الإنسان يستطيع العيش بنصف المعدة أيضاً، فلماذا أعطوه كل هذا؟!

ويجيبوا علىٰ ذلك: بأن «الطبيعة» فكّرت في المستقبل واحتملت عطل جزء من هذه المعدة عن العمل يوماً ما، ولهذا ارتأت أن تعطيه أكثر مما يحتاج تحسباً للضرورة وكاحتياطي يستفيد منه عند الحاجة، والآن نسأل منكم:

هل أنّ الطبيعة ذات عقل كي تفكر في مستقبل الإنسان وتعطيه جزء احتياطي ليبقىٰ حياً ويواصل حياته؟ وهل نستطيع أن نُطلق هذا القول علىٰ نظام بلا عقل ولا شعور بل أعمىٰ وأصمّ وليس له برنامج وهدف معين ومعلّومات؟ . . .

وغالباً ما تستعمل كلمة «لـ» للمفكرين، وعلىٰ سبيل المثال يقولون: أنا جئت لهذا المكان لكي أُشارك في هذه الندوة، وأنتم جئتم لتجدوا برنامجاً للحياة من خلال هذا البحث.

إذن، تستعمل كلمة «لـ» دائماً للموجود ذو العقل والعلم والمعرفة، فماذا يعني الهدف عند الطبيعة عند الماديين الذين يرون إنّ الطبيعة: «موجود فاقد للشعور»، وإنّ نظام العلة والمعلول بلا خطة وبرنامج وحساب؟ وما هو معنىٰ «لـ»؟

ما معنىٰ التخطيط للمستقبل؟

وما معنىٰ الخطة؟

ومن هنا يتضح أنّ هذه الطبيعة لها معنىٰ آخر غير معناها، وهو نفس الشيء الذي نحن نسمّيه الإله وهم يسمّونه الطبيعة، وهذه الصفات ـ العلم والقدرة والحكمة والتخطيط والهدفية ـ كلها صفات الله عزّ وجلّ.

لكل عالم عقيدته الدينية

ربما هنالك البعض ممّن لا يروق له سماع هذا الموضوع منا وليس لهم استعداد لسماعه من لسان علماء الغرب فقط بل الإصغاء لشهاداتهم واعترافاتهم حول أمثال هذه المسائل، لذا نورد هنا النص التالي من أقوال العالم المعاصر الشهير «انشتاين» والذي يعد من أكبر مفكري عصرنا لكي يتضح أن لكل عالم عقيدته الدينية حتىٰ أنّ كبار علماء العلوم الطبيعية يعترفون بأنّ لكل عالم وحكيم ومفكر في العالم له نوع من العقيدة الدينية الثابتة حتىٰ أولئك الذين هم في الظاهر طليعة صفوف الماديين والملحدين والمنكرين لله هم أيضاً ليسوا بلا عقيدة مذهبية، فالدين والعقيدة حاجة إنسانية لا غنىٰ عنها وإن أظهر البعض غير ذلك وضرورة حياتية لا مناص منها وإن تغافل بعضهم عن ذلك.

علىٰ أنّ «انشتاين» يذهب إلىٰ أبعد من هذا، فهو يقول:

إنّ السبب الهام الذي أدىٰ بالعلماء والمفكرين والمكتشفين والمخترعين إلىٰ التقدم العلمي طوال القرون والأعصار هو عقيدتهم المذهبية، ولولا وجود هذه العقيدة لَما وُفِّقوا لهذه الاكتشافات، وقد يكون هذا الأمر عجيب جداً للبعض، إلاّ أننا سوف نرىٰ بوضوح بأنّ العلماء جميعهم كانوا ـ في الواقع ـ يستلهمون في اكتشافاتهم العلمية ويستمدون القدرة عليها من عقيدتهم بالله تبارك وتعالىٰ.

ولننظر الآن بدقة إلىٰ محتوىٰ عبارة «انشتاين» المأخوذة من كتابه «العالم الذي أراه» والذي تُرجم ونشر بأكثر من لغة إذ يقول:

«من الصعب أن نجد فيما بين العقول المفكرة في العالم شخصاً لا

يمتلك نوعاً من الشعور المذهبي الخاص به، وهذا المذهب يختلف عن مذهب الشخص العادي، وكذا إله الشيخ العادي فهو يفرق عن إله المفكرين، فالأول موجود تُرجىٰ رحمته ويُهرب من سخطه وغضبه، كمشاعر الطفل المتغيرة الشكل تجاه أبيه، وأما العالم المصلح الذي يعتقد بقانون العليّة في عالم الوجود فبأيٍّ مذهب يعتقد؟ إنّ مذهبه عبارة عن نظام دقيق عجيب للكائنات يبعث علىٰ النشاط والذي يرفع الستار ـ في بعض الأحيان ـ عن الأسرار الكامنة التي لم تكن إلاّ انعكاس قليل غير قابل للقياس مع كل تلك المساعي والبرامج البشرية المنظمة.

أي أنّ المذهب عند الإنسان المفكر ليس كمذهب الإنسان العادي، فعوام الناس يؤوبُ إلىٰ الله خوفاً منه أو شوقاً للجنة، أما المفكر فمذهبه ناشيء عن نظام عالم الوجود وقوانين عالم التكوين.

فعندما ينظر إلىٰ هذا النظام العجيب والمحيّر فسوف تحصل عنده حالة من الإعجاب والحيرة الممزوجة بالنشاط وهذا ما يضطره إلىٰ السعي لإدراك قوانين هذا العالم، وكلما يُرفع الستار عن قانون ونظام من أنظمة هذا العالم، فإنّ كل المتاعب والجهود التي بذلت في هذا الطريق تبدو قليلة جداً وبلا أهمية في قبال ذلك القانون الذي اكتشف، فالهدوء يسود روحه جراء هذه المحاولات والجهود وترتفع كافة المتاعب.

وأنني عندما كنت أطالع ما قاله «انشتاين» تذكرت قولاً لأمير المؤمنين حيث يقول:

«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك. . .».

فكل موجود ينتهي إليك وكل هذا النظام العجيب ينشعب منك، وإني لأجل هذا النظام ولأجل هذا الوجود ولأجل علمك وحكمتك ووجودك الذي لا نفاد له ولا انتهاء؛ لأجل ذلك كله أعبدك.

من هنا نرىٰ أنه من بعد ١٤٠٠ عام أو أقل يأتي انشتاين ويقول: إنّ مذهب مفكري العالم مذهبٌ بُنِيَ علىٰ أساس نظام عجيب محيّر باعث علىٰ

النشاط من عالم الخلق الذي كانت أفكار المفكرين تدور حوله، وكانت كافة افتخارات المفكر تتجلىٰ في استطاعته قراءة صفحة من صفحات هذا الكتاب الكبير المسمىٰ بعالم الوجود وإزاحته الستار عن بعض أسراره.

ويتضح مما قلنا بضعة أمور أساسية:

١ ـ أصبح واضحاً معنىٰ المذهب وفهمنا أن المعنىٰ الواقعي للدين والمذهب هو التسليم قبال حقائق عالم الوجود والخلق، وأمام الله عزّ وجلّ والأحكام الإلهية وإنّ كافة المذاهب والشرائع التي جاءت بعضها يكمّل البعض الآخر من ناحية، وكلها مكمّلة لنظام غرائز وجسد وروح الإنسان.

٣ ـ إن المذهب كان له وجوده علىٰ طول مراحل التاريخ البشري لأن هذا الإنسان علىٰ علاقة وثيقة غير منفصلة عن عالم الوجود ولا يسعه إلاّ التسليم أمام حقائق الوجود شاء أم أبىٰ، وعلىٰ هذا فإنّ المذهب موجود في كيان الإنسان وسوف يبقىٰ ولكن قد تختلف أشكاله وصوره.

٣ ـ إنّ أولئك الذين يدّعون ـ الآن ـ بعدم اعتقادهم بمذهب فإنهم في الواقع يلتزمون مذهباً إما بصورة عبادة إنسان أو بدّلوا اسمه فأطلقوا اسم الطبيعة علىٰ ما نسميه الله، علىٰ أنّ هذه الطبيعة التي يعتقدون بها لها كافة صفات الله عزّ وجلّ.

هذه خلاصة المسائل التي ينبغي الالتفات إليها لبيان حقيقة مفهوم الدين، والآن لننظر ماذا قدَّم لنا هذا الدين والمذهب والذي فسّرناه بالعبارات الثلاث السابقة من مكاسب وهدايا. وهذا ما سنتعرض إليه في بحثنا الآتي.

المستقبل المؤمَّل

في ختام البحث المتقدم أرىٰ من الضروري التذكير بنقطة هامة وهي: علىٰ خلاف ما يتصور اليائسين ومن أنّ ركائز المذهب في دائرة المجتمع البشري أصبحت ضعيفة ومتزلزلة فإن عقيدتي علىٰ العكس من هذا حيث أرىٰ إنسان اليوم يخطو نحو الدين وبالخصوص نحو الإسلام وإن عالم الإنسانية بدأ يقترب من أفكار الأنبياء ومعتقداتهم.

وهذا ليس مجرد ادعاء بل حقيقة أثبتتها التجارب الكثيرة التي اكتسبتها من خلال الاختلاط والكتابات والمراسلات الوافرة مع مختلف الطبقات، بمعنىٰ أني لم أقل هذا الموضوع بناءاً علىٰ ما قرأته في كتاب عالمٍ ما بل اعتماداً علىٰ مطالعاتي الشخصية.

وعلىٰ هذا الأساس ينبغي أن نكون متفائلين بالمستقبل، وبالتأكيد سوف يكون مستقبل المجتمع الحاضر أفضل من الماضي؛ لأن الشباب أصبحوا أكثر إيماناً وإنّ ركائز المذهب أصبحت أعمق وأكثر رسوخاً.

لا تنظروا إلىٰ الفساد الذي ظهر في مجتمع اليوم؛ فلو أنّ وسائل الفساد المتوفرة هذا اليوم كانت موجودة قبل ٢٠٠ عام لكأن حال ذلك المجتمع أسوء بكثير من وقتنا الحاضر، فالوسائل الحالية لم تكن موجودة آنذاك لذا لم يكن الفساد منتشراً بالشكل والحجم الحالي. لكننا نرىٰ علامات الإحساس بالفشل والضجر والشعور بالضياع والاضطراب قد ظهر بشكل واضح من جراء هذه المفاسد وأنّ الناس قد أرهقوا منها، ولا بد من السير نحو الإصلاح.

ولهذا نرىٰ الآن تشكيل مراكز ولجان دينية مختلفة للشباب في هذا البلد، وربما كان مؤسسو هذه المراكز لا يصدقون أن يأتي يوم يلتقي فيه هذا التجمع الضخم للطبقة المثقفة من التلاميذ والطلبة الجامعيين والمعلمين وأساتذة الجامعة والعلماء والطبقات المختلفة الأخرى وفي بعض الأحيان تعقد بعض الاجتماعات خلال موسم الصيف ـ الذي يذهب الناس فيه للترفيه والاستراحة ـ لدراسة الإسلام والتعرف علىٰ حقائقه.

وبكل ثقة واطمئنان أقول: إننا لو كنا نمتلك الوسائل الإعلامية المنظمة والمدروسة طبق البرنامج المعدّ وتطور مشاريع الإسلام بلا ضعفٍ ووهن وبلا خوف ووجدنا رجالاً ونساءاً مضحّين ومستعدين لاستطعنا تشكيل المئات من أمثال هذه المراكز في أنحاء البلد خلال فترةٍ قصيرة، ولا أقول هذا الكلام جزافاً، بل هذه حقيقة شاهدت الأدلة العديدة عليها بنفسي.

وعلىٰ هذا فلنكن متفاءلين، فلسنا الوحيدين في الطريق، وإنّ مستقبل الدين أحسن من ماضيه، وبالتأكيد سوف تصبح عرىٰ الإيمان أقوىٰ وأصلب

عوداً، كما سيتضح في البحث الآتي كيف أنّ البشرية بدأت تقترب بسرعة من الله عزّ وجلّ من خلال العلم والمعرفة بانتهاجها خط الأنبياء حتىٰ نخطو إلىٰ الأمام باطمئنانٍ وثقة وعلىٰ بيّنة من أمرنا فيغدو كلٌّ منا مبلغاً في محيطه الذي يتحرك فيه: مدرسة أو جامعة أو محل عمل وأمثال ذلك، ونستطيع أن تكون للآخرين سراجاً منيراً.

المكاسب والنتائج

موضوع البحث كما أوضحنا سلفاً هو مكاسب الدين أي أننا نريد أن نرىٰ ما هي نتائج وآثار الدين والمذهب في حياة الإنسان والمنجزات التي حققها الدين والمذهب للبشرية؟

وكنا في القسم الأول للبحث السابق حول هذا الموضوع سلّطنا الضوء علىٰ بيان حقيقة الدين والمذهب من الناحية الفلسفية ومن ناحية المنطق الإسلامي ومنطق العقل.

أما القسم الثاني للبحث؛ والذي يدور حول مكاسب المذهب وآثار الدين والمذهب في حياة الناس، فهو موضوع واسع جداً، ذلك لأنّ الدين والمذهب له تأثيره علىٰ كل شؤون حياة الإنسان، وفي كافة مراحل التاريخ كان علىٰ اتصال مباشر مع حياة الناس. وإذا أردنا أن نتحدث حول آثار ونتائج الدين والمذهب في حياة البشرية بشكل مفصل يشمل كافة جوانب الموضوع فلا بد أن يكون ضمن النقاط التالية:

أولاً: آثار المذهب من الناحية النفسية.

ثانياً: دور المذهب في العدالة الاجتماعية وتحقيقها.

ثالثاً: دور المذهب في محاربة الفساد.

رابعاً: آثار المذهب في النواحي السياسية والاقتصادية.

وعلىٰ ضوء هذا نلاحظ أنّ لنتائج وآثار المذهب والدين في حياة البشرية أبعاد مختلفة، يستلزم كلٌّ منها بحث مستقل.

أما ما نريد البحث حوله في هذا الحديث القصير والمقتضب، هو

جانب واحد من الموضوع، وهو دور الدين والمذهب في إحياء القوىٰ الفكرية والعقلية؛ وبعبارة أخرىٰ: كيف يستطيع الدين إيجاد تحولٍ فكري في دائرة المجتمع؟

والجزء الوحيد الذي سنتناوله في هذه الرسالة في إطار آثار المذهب هو: دور المذهب وآثار العقائد الدينية في الثورة الثقافية وإحياء القوىٰ الفكرية في المجتمع.

وقد تسأل ـ عزيزي القارىء ـ: لماذا شرعنا بهذا الجانب من المكاسب التي حققها الدين ودور المذهب في ذلك دون الجوانب الأخرىٰ، فنقول أننا نعتقد أن هذه المسألة ـ أي إحياء القوىٰ الفكرية والعقلية ـ تعدُّ أكثر أهميةً وحساسية من بقية المسائل الأخرىٰ؛ فإنّ كافة الثورات الاجتماعية تحدث في ظلال هذه التحولات الفكرية والثقافية والعقلية، وما لم تتحرك القوىٰ الفكرية والعقلية لأمةٍ ما، فإنّ الجوانب الأخرىٰ تبقىٰ عاطلة علىٰ الدوام، وسوف لا يستفاد من قابلياتهم المكنونة.

وهذا الأمر تؤكده حياة الأنبياء والرسل أيضاً؛ فأنبياء الله ورسله بدأوا في إحياء المجتمعات من خلال إحياء الطاقة الفكرية والعقلية فيهم، وفي ظل التحول الفكري استطاعوا إيجاد كل تلك الإصلاحات في عالم البشرية.

وعلىٰ هذا الأساس نتحدث بشكل صريح وواضح عن دور الدين وأثر المذهب في إحياء الطاقة الفكرية وإيجاد تحوّلٍ فكري في التجمعات والمجتمعات البشرية.

وأرىٰ من الضروري ـ هنا ـ ذكر المقدمة التالية:

كلنا نعلم أنّ فلاسفة العالم ينتمون إلىٰ فئتين:

الأولىٰ: الفلاسفة الإلهيون الذين يعتقدون بوجود الله، وأنه مصدر العلم والقدرة التي تحكم عالم الوجود، وهؤلاء هم الأكثرية العظمىٰ لفلاسفة العالم.

الثانية: الفلاسفة الماديون.

ومن الممكن أن يكون أكثر أفراد هذا الصنف قد اشتبهوا في تسمية

الاله في قرارة أنفسهم كما ذكرنا في بحثنا السابق لكنهم الآن ضمن إطار هذا الاتجاه.

الفرق بين الفلاسفة الإلهيين والماديين

أين يفترق الفلاسفة الإلهيون والماديون..؟

يخطىء البعض حين يتصور بأنّ الاختلاف بين الفلاسفة الإلهيين والماديين يكمن في عبادة الله، وأنّ الإلهيين يعتقدون بالعلة الأولىٰ وعلة العلل في عالم الوجود في حين ينكر الماديون ذلك، فاختلافهم ـ إذن ـ في الإيمان والاعتقاد بوجود العلة الأولىٰ وعدمه.

ويقول هؤلاء البعض أنّ الفلاسفة الإلهيين يعتقدون بأنّ هذه المخلوقات والموجودات وعالم الوجود معلولات لعلّةٍ ليس لها علة أخرىٰ، عبّروا عنها بـ«واجب الوجود» والوجود يتبع من ذاتها، وليس مديناً لوجودٍ آخر. أما الفلاسفة الماديون فلا يعتقدون بالعلة الأولىٰ!

وهكذا يتصور البعض أن الاختلاف بين التيارين الإلهي والمادي يتركز ـ حقاً ـ في الاعتقاد بالعلة الأولىٰ وعدمه.

وفي الواقع أنّ هذا التصور اشتباه محض؛ لأنّ كافة الفلاسفة، إلهيين وماديين، يعتقدون بالعلة الأولىٰ بلا استثناء، أي أنهم يؤمنون بوجودٍ أزلي، الوجود الذي كان دائماً وسيكون إلىٰ الأبد. إلاّ أنّ الإلهيين يعتقدون بأنّ ذلك المبدأ هو «الله» في حين يرىٰ الماديون أنّ «المادة» هي المبدأ.

فالمادة ـ في رأي الماديين ـ هي العلة الأولىٰ، وهي علة العلل، ووجودها من ذاتها، واجب الوجود وليس معلولاً لعلةٍ أخرىٰ، فهي أزلية موجودة منذ القدم في حين يرىٰ الإلهيون أنّ الله هو العلة الأولىٰ.

إذن يتفق التياران في الاعتقاد بأنّ لهذا الكون علة أولىٰ لكن أحدهم يقول أنها «المادة» والآخر يعتقد أنها «الله».

وفي هذا المجال تذكرت عبارة للفيلسوف الإنكليزي المعروف «برتراندراسل» الذي حظيت أفكاره بشهرة واسعة في عالمنا المعاصر فوجدت أنّ هذا الرجل الذي عُرِفَ فيلسوفاً في عالم الغرب قد وقع بنفس الخطأ في

موضوع معرفة الله، فهو يقول في كتابه «لماذا لست مسيحياً»: «إنني لست مسيحياً بل مادياً. . .» وقد تحدث عن ذلك بشكلٍ مفصل في محاضرة له جمعت ونشرت في الكتاب المذكور.

يقول هذا الفيلسوف الانكليزي في بداية كتابه هذا ـ وبصراحة ـ: «في شبابي كنت أعتقد بالله، وكنت مسيحياً حقيقياً؛ فكنت أعتقد بوجود خالق، لكنني نتيجةً للتقدم العلمي والفكري الذي حصل لي مع مرور الزمن عدلت عن هذا الاعتقاد الذي يقضي بوجود علةٍ لكل موجود، وعليه فهذا الكون له علة، وتلك العلة الأولىٰ هي «الله»، وهذا البحث الاستدلالي ـ الذي يسمىٰ برهان علة والعلة الأولىٰ ـ كان وسيلة اعتقادي بالله، وبعد فترة رجعت عن إيماني بالله بسبب العبارة التالية التي عرضت عليّ وآستجبت لها، وهي:

إذا كان لهذا النظام الكوني علّة، وعلّته الله، وإنّ هذا قانون شامل ويخضع له كل ما في الوجود، فلا للخالق علّة أيضاً؟

ولقد كان لهذه العبارة الأثر الكبير علىٰ روحي وفكري بحيث جمّدت كافة اعتقاداتي الإلهية وتخلّيت عنها كلياً، وعرفت منها أنّ الاعتقاد بعلة العلل ليس صحيحاً».

تلك هي نفس المشكلة التي يعاني منها بعض الشباب في عصرنا الحاضر، إلاّ أنّ هنالك نقطتان لا بد من الإشارة إليها تعليقاً علىٰ حديث الفيلسوف برتراندراسل:

الأولىٰ: إنّ الدليل علىٰ معرفة الله من خلال برهان علة العلل ليس صحيحاً. ذلك لأن الماديين يعتقدون ـ أيضاً ـ بالمبدأ سوىٰ أنهم يرون أنّ المادة هي علة العلل؛ فهؤلاء يعتقدون بالعلة الأولىٰ، وعلىٰ هذا فالاعتقاد بالعلة الأولىٰ لا يرتبط بموضوع معرفة الله، لكن ما هو السبب في اعتقاد الجميع بأنّ لهذا الكون علة أولىٰ وجودها من ذاتها وليست معلولة لعلة أخرىٰ؟ والجواب: لأنهم رأوا: أن نقول أنّ هذا الكون معلول لعلة، وتلك العلة معلولة لأخرىٰ، فإننا سوف نستمر في هذه السلسلة إلىٰ ما لا نهاية، مما يقتضي الاعتقاد بالتسلسل في العلل، ووجدوا أنّ ذلك ليس ممكناً لأنه يؤدي إلىٰ التسلسل اللانهائي الذي يتنافىٰ مع حاجة الموجودات إلىٰ وجودٍ

تتلقّىٰ وجودها منه. ولا بد أن نصل إلىٰ نقطة وجودها من ذاتها وليست محتاجة إلىٰ وجودٍ آخر، لأنّ المعلولات اللانهائية معلولة أيضاً كما أنّ المحتاجات اللانهائية محتاجةٌ أيضاً، وللمثال علىٰ ذلك نقول: إننا إذا وضعنا العدد «صفر» إلىٰ جنب «صفر» آخر إلىٰ ما لا نهاية كما تشكّل لنا عدد من الأعداد علىٰ الإطلاق، وهكذا إذا أردنا أن نمدَّ السلسلة ـ سلسلة العلة والمعلول في الكون ـ إلىٰ ما لا نهاية فإنّ ذلك يعني أننا وضعنا «صفراً» إلىٰ جنب «صفر» آخر لنحصل علىٰ عددٍ ما.

وعندما رأوا أنّ ذلك ليس ممكناً اضطروا لقطع هذه السلسلة في نقطةٍ ما جعلوها مرتكزاً ليصلوا إلىٰ موجودٍ هو العلة الأولى، ووجوده ينبع من ذاته، وليس معلولاً لعلةٍ أخرىٰ وهو ما يجب الوصول إليه والذي نعبّر عنه ـ نحن ـ أنّ ذاته «واجب الوجود»، والذي اعتبره الماديون علّة العلل والموجود الأزلي، في حين أنّ الإلهيين يعتقدون بأنه الله.

فالفيلسوف برتزاندراسل ـ إذن ـ وقع في خطأٍ كبير عندما قال أنني نقضت برهان علّة العلل وطرحته جانباً، لأنّ مَنْ ينكر برهان علة العلل ليس مادياً وإلهياً فحسب، بل معتقداً بتسلسلٍ لا يستطيع الخلاص منه.

الثانية: أننا عندما نقول أنّ «كل موجود يحتاج إلىٰ علّة» فإنّ علينا أن نفسّر عبارة «كل موجود» تفسيراً صحيحاً؛ فـ«كل موجود» تعني كل موجود ممكن، وكلّ موجود محتاج وكل موجود وجوده من خارج ذاته.

وهذه العبارة (كل موجود) صادقة؛ فكلّ موجود ممكن هو كل موجود محتاج إلىٰ علّة بلا ريب. إلاّ أنّها لا تصدق بالنسبة للخالق أو للعلة الأولىٰ، ذلك لأن ممكن الوجود الذي وجوده ليس من ذاته يحتاج إلىٰ علّة، فهل يشمل هذا القانون الخالق أيضاً؟

والجواب كلاّ؛ فهذا القانون لا يشمل العلّة الأولىٰ لأنّ كل موجود محتاج، وكل موجود وجوده من ذاته (وهو ما يصطلح عليه بـ«ممكن الوجود») يحتاج إلىٰ علّة. أما الذات الأزلية ـ التي هي واجب الوجود والوجود ينبع من ذاتها ـ فهي ليست تحتاج إلىٰ علّة سواء كانت المادة أم الخالق.

أمثلة توضيحية:

ويمكن أن يكون أغلبكم قد سمع بهذه الأمثلة المعروفة:

فنحن نقول أنّ كلّ شيء يحتاج إلى الضوء للإنارة، فهل يشمل هذا القانون الضوء نفسه؟ أي هل يحتاج الضوء إلىٰ ضوء أيضاً لكي يُضيء؟..

وهكذا فإنّ كل شيءٍ يحتاج الماء لكي يصبح رطباً، فهل يحتاج إلى الماء إلىٰ ماءٍ أيضاً لكي يصبح رطباً؟ وهل أنّ عبارة «كل شيء» تشمل الماء أيضاً؟ وكذلك فإنّ كل شيءٍ يحتاج إلىٰ النار كي يصبح ساخناً، فهل تحتاج النار إلىٰ نارٍ أيضاً لتصبح ساخنة؟

وكل طعام يحتاج إلىٰ الملح لكي يصبح مالحاً، فهل يحتاج إلىٰ ملح أيضاً ليصبح مالحاً؟

إنّ هذه القوانين العامة لا تشمل هذه الموجودات نفسها، لأننا عندما نقول أنّ كلّ طعام يحتاج إلىٰ الملح ليصبح مالحاً، فذلك يعني أنّ الملوحة ليست في ذات الغذاء، ولا بد أن يكتسبها من خارج ذاته، وكذا الحال بالنسبة للحرارة فإنها ليست في ذات كل جسم ولا بد أن يكتسبها من خارج ذاته، فهو محتاج إليها، أمّا النار ـ نفسها ـ فلا تحتاج إلىٰ نار لكي تصبح ساخنة.

وهذا هو نفس البحث الموجود في الفلسفة تحت عنوان «كل ما بالعرض ينتهي إلىٰ ما بالذات»، أيّ أنّ كلّ موجود عرضي في العالم له متبع يرجع إليه، وذلك المنبع لا يحتاج إلىٰ آخر.

وهكذا بالنسبة لموضوع «الوجود»، فالموجودات الحادثة تستمد وجودها من مكان آخر، لأنها ليست أزلية.

ولهذه الموجودات تاريخ، فتكوّن الكرة الأرضية والسماء والكواكب والمنظومة الشمسية لها تاريخ، ويقال إنه مضىٰ أربعة آلاف مليون سنة علىٰ عمر منظومتنا الشمسية.

إذن هذه المنظومة لها تاريخ، وبما أنها لم تكن موجودة قبل أربعة آلاف مليون سنة لذا فوجودها من خارج ذاتها ولا بد من الرجوع إلىٰ علةٍ أزليةٍ أولىٰ ليست معلولة لأخرىٰ.

نستنتج مما تقدم أنّ الاختلاف بين الماديين والإلهيين ليس في الاعتقاد بالعلة الأولىٰ، ومن الخطأ أنْ نتصور أنّ الماديين ينكرون اعتقاد الإلهيين بأنّ للعالم علّة أزلية، فالاتجاهان يعتقدان بالعلة الأولىٰ التي وجودها ينبع من ذاتها.

وهنا قد تسألون: إذا كان كذلك فأين وجه الاختلاف بين التيارين؟ ونجيب: إنّ الاختلاف بين التيار الإلهي والمادي يكمن ـ بشكل تام ـ في نقطةٍ واحدة فقط. فالفلاسفة الإلهيون يقولون أنّ للعلة الأزلية الأولىٰ علم وحكمة ووراء ذلك هدف وتخطيط وبرنامج في حين يرىٰ الماديون أنّ المادة هي العلة الأولىٰ، وهي أزلية ألاّ أنها فاقدة للعلم والحكمة والهدف، وليس من شأنها التخطيط والنظام إنما الحوادث العمياء والصمّاء والعلل الفاقدة للإحساس والحكمة اجتمعت وأفرزت هذا النظام الكوني، وبالتالي فإنّ هذا العالم معلول لتلك المادة بلا مبنىٰ عقلي وحكمة وبرنامج وهدف.

فالاختلاف بين التيارين ـ إذن ـ هو في وجود العلم والحكمة في العلة الأزلية لهذا العالم حيث أنّ الاثنين يعتقدان بالعلة الأولىٰ إلاّ أنّ أحدهم يقول أنّ لهذه العلة علم وحكمة والآخر ينكر ذلك.

والآن وبعد أن اتضح أنّ الاختلاف يدور حول قضية «العلم» و«الجهل» بالنسبة لعلة الوجود، لنرجع قليلاً إلىٰ هذا النظام الواسع لعالم التكوين والخلق ونلقي نظرة عليه، فهل يمكننا أن نرىٰ في موجوداته دليلاً علىٰ العلم والحكمة لتلك العلة أم العكس، ولندرس هذا النظام الكوني لنرىٰ أي الاتجاهين صحيحاً؟...

فنحن ـ الاثنين ـ نعتقد بـ«علة العلل» إلاّ أننا نختلف عنهم في اعتقادنا بأنّ لهذه العلة علم وحكمة.

وهنا لا بد من القول أنّ العلماء الماديين (وكما أشرنا سابقاً) يؤمنون بوجود نظام في عالم الوجود بشكل لا أرادي، وهم من وراء إيمانهم هذا يعتقدون بوجود مبدأ ومنشأ للعقل والحكمة في هذا العالم مع أنّهم لم يعترفوا بذلك صراحةً!..

مثال بسيط:

وهنا أطرح مثالاً بسيطاً لنرىٰ ماذا يستطيع الإنسان أن يقول مقابل هذه الأمثلة...

ففي السنين الأخيرة ظهر اكتشاف وفتح جديد في علم الطب. فقد استطاع الدكتور «بارنارد» ـ ولأول مرة في تاريخ الطب البشري وعلم الجراحة ـ زرع قلبٍ اصطناعي، حيث قام بإخراج قلب إنسان وزرعه في صدر إنسانٍ آخر كان قد عطل قلبه عن العمل وأشرف علىٰ الموت، واستطاع الحفاظ علىٰ حياته مدة زمنية قدرها خمسمائة يوم تقريباً.

ومع أنّ مقاومة الجسم للأجسام الغريبة لم تمهل السيد «بلي برك» ففارق الحياة، إلاّ أنه كان قد تمكّن من العيش الفترة المذكورة بقلبٍ اصطناعي.

ورُبَّ سائل يسأل: هل أنّ الدكتور بارنارد استطاع أن يحقق هذا الإنجاز الرائع والعجيب في عالم الطب اعتماداً علىٰ علمه وإمكانيته الفكرية فقط؟ فيجيب الشخص العادي بالإيجاب قائلاً: إنّ الدكتور بارنارد هو الذي قام بهذا العمل. أما الإنسان المتدبّر فسوف يقول إنّ البشرية ـ بأجمعها ـ اشتركت في إنجاز هذا العمل لأنّ هذا الطبيب كان قد درس في جامعةٍ ما، وكان له أساتذة استفادوا من أفكار الآخرين ومن الذخائر والتجارب المتراكمة منذ آلاف السنين.

ومن خلال تاريخ الطب البشري تجمّعت هذه الأفكار وَدُوِّنت في الكتب التي تمَّ تدريسها في الجامعات.

وهذا الحال شمل الدكتور بارنارد حيث درس هناك وتلقّىٰ علوم الماضين واستطاع الوصول إلىٰ هذه النتيجة من خلال الاستفادة من التجارب التي حصلت في بضعة آلاف عام.

إذن، في الواقع أنّ الدكتور بارنارد وضع النقطة الأخيرة لهذه الجملة، بعد أن هيأ أسلافه العلماء مقدماتها، وقدّموا قافلة العلم والفكر البشري نحو الأمام.

وخلاصة القول: إنّ عملية إخراج القلب من صدر إنسان وزرعه في صدر إنسانٍ آخر تحتاج إلىٰ تلاقح أفكار وتراكم جهود العلماء لبضعة آلاف من السنين!

فهل يا تُرىٰ من الممكن إنجاز هذا العمل بلا علم وحكمة؟..

من البديهي الجواب كلاّ؛ فهذه العملية تحتاج إلىٰ تلاقح أفكار المفكرين والعقول البشرية الفعّالة لآلاف السنين حتىٰ يمكن أن تتم عملية نقل القلب من شخصٍ لآخر.

وهنا نسأل: لو أريد تبديل مصباح بآخر، فهل أنّ هذه العملية ـ التي قد تحتاج في بعض الأحيان إلى الدقة والمهارة الفنية ـ تتطلّب علماً وحكمةً أكثر أم صنع المصباح نفسه؟ وهل أنّ صنع المصباح أهم أم تبديل مكانه؟!

إنّ عملية زرع القلب الاصطناعي التي تُعَدُّ إعجازاً في عالم الطب ـ مع ما لها من أهمية ـ مَثَلُها كَمَثَل تبديل المصباح من مكانٍ لآخر، وبالتالي فلا قيمة لها قبال جهاز القلب نفسه وخفاياه وأجزاءه الدقيقة ونظام عمله المدهش.

ولا أحد من علماء عصرنا الحاضر يجرأ علىٰ القول بأنّ عملية زرع القلب الاصطناعي هي نتيجة جهود العقول المفكرة لآلاف السنين في حين أنّ جهاز القلب مدينٌ للطبيعة التي أوجدته والتي لا تملك عقلاً وشعوراً حتىٰ علىٰ مستوىٰ طفل في عمر السنتين، ذلك لأنّ الطبيعة التي لا تملك إدراك طفل رضيع أو مولود عمره يوم واحد ـ من الناحية المادية ـ كيف يمكنها أن تصنع قلباً؟!...

أهمية القلب

وهنا لا بد من بيان مسألة أخرىٰ لنصل من خلالها إلىٰ نتيجة البحث التي هي هدفنا الهام.

قرأت قبل مدة في إحدىٰ الصحف الموضوع التالي:

قام إخصائيون بإعداد قلب اصطناعي ووضعه في صدر إنسانٍ كان راقداً علىٰ سريرٍ في مستشفىٰ ولم يكن يتحرك علىٰ الإطلاق لئلاّ يتوقف

القلب الاصطناعي عن العمل. فاستمر هذا القلب بالعمل لمدة حوالي ستة أيام، إلاّ أنّ ذلك القلب الاصطناعي كان قد كلّف ٣٠ مليون تومان جراء عمله لمدة ستة أيام!

ولو قسّمنا ٣٠ علىٰ ٦ لكان الناتج ٥، أي أنهم صرفوا «خمسة ملايين» في كل ٢٤ ساعة يبقىٰ هذا الإنسان حيّاً.

إذن، بكل هذه المصاريف وكل تلك الطاقات الفكرية وكل ذلك التقدم العلمي في المجالات المختلفة استطاعوا زرع قلب اصطناعي! جديرٌ بالذكر أنّ رجلاً مجرّباً علّق علىٰ هذا الموضوع بعد إطلاعه عليه قائلاً:

إنّني لم أكن أعلم أنّي غنيٌّ إلىٰ هذا الحد. فإذا كانت كلفة جهاز القلب لليوم الواحد خمسة ملايين تومان فكم ستصبح ثروتي فيما لو قُدِّر لي العيش خمسين عاماً؟ وكم أنا ثريٌّ إذا كان هذا قيمة جزءٍ واحد من جسمي؟!

والقصد من وراء هذه العبارة هو:

هل أنّ النظام المدهش الذي نعيشه يقتصر علىٰ وجودنا، أو علىٰ جهاز القلب فقط أو الجهاز العقلي أو جهاز العين الذي يقول عنه العالم الروسي «إنّ أظرف ما شُوهد من تركيب في عالمنا المعاصر هو تركيب عين الإنسان»؛ فهل يمكننا القول بعد هذا أنّ العلة الأولىٰ لهذا الكون فاقدة للعلم والمعرفة ولكلّ حكمةٍ وتدبير؟ وهل أنّها أوجدت هذا الكون علىٰ هذا الحال؟

وهذا ما لا يقبله أحد، وهو ما أُشير إليه ـ أيضاً ـ في البحث السابق من أنّ الماديين ـ أنفسهم ـ لديهم لون من العقيدة بهذا النظام بصورة لا إرادية، ومن وراء اعتقادهم هذا يؤمنون بوجود مبدأ ومنشأ للعلم والحكمة في هذا النظام وإنْ لم يعترفوا بهذا صراحةً، أو لم يلتفتوا إلىٰ عقيدتهم هذه.

وخلاصة البحث ما يلي:

١ ـ ليس هنالك اختلاف بين الإلهيين والماديين في قضية الإيمان بـ«العلة الأولىٰ» والاعتقاد بـ«الوجود الأزلي».

٢ ـ اختلافهم الوحيد يكمن في الاعتقاد بثبوت صفة العلم والحكمة للعلة الأولىٰ.

٣ ـ النظرة العامة لعالم الوجود تُنبِأنا بأنّ هذا الكون يسير علىٰ ضوء تخطيطٍ وعلمٍ وحكمة.

والآن نريد الوصول إلىٰ نتيجةٍ لنرىٰ من خلالها دور الإيمان والعقيدة المذهبية في إحياء ونمو طاقة الإنسان الفكرية، وبذلك يكون تفكيرنا وتخطيطنا نابعاً من روح ذلك الإيمان والاعتقاد بالله والمذهب.

من أقوال أنيشتاين

وهنا أنقل لكم تتمة ما قاله «أنيشتاين» في هذا المجال وأُلفِتُ نظركم إلىٰ عبارة جميلة جداً راجياً التمعّن بهذه الكلمات.

يقول «أنيشتاين» في كتابه «العالم الذي أراه» في الصفحة ٥٩ :

إنّني أعتقد أنّ «المذهب الوجودي» أو «مذهب عالم الوجود» هو أقوىٰ وأهم دافع للأبحاث والدراسات العلمية، أي لا بد من إجراء الأبحاث العلمية في كافة الفروع الطبيعية في إطار هذا المذهب (وذلك لاعتقاده أنّ المذهب الصائب هو المذهب الوجودي، ويقصد به المذهب الذي مصدر الإيمان به هو نظام عالم الوجود، وهذا النظام ينبّهنا إلىٰ وجود مبدأ؛ ذلك المبدأ الذي يمتلك العلم والحكمة).

إنّ أُولئك الذين يعرفون معنىٰ جهود العلماء والمفكرين التي فاقت حد التصوّر والتصديق، والأهم منها مساعي وجهود وتضحيات الطلائع والأفواج العلمية التي قامت بشرح نظريات العلماء وتفصيلها يعلمون ويستطيعون اكتشاف الطاقة الهائلة للإنفعالات التي هي مصدر كل هذه الإبداعات العجيبة والكاشفة الحقيقية لقوانين الحياة».

ثم يستنتج قائلاً:

«فأيّ التزام واعتقادٍ بنظام عالم الوجود وأيّ شوقٍ عجيب أعطىٰ نيوتن القدرة والقابلية علىٰ تحمّل مشقة الوحدة المطلقة والسكوت المحض عدة سنوات لإيضاح وبيان قوة الجاذبية والنظام الفلكي».

وما أعجب هذه العبارة!

فهو يقول: إنّ نيوتن رأىٰ ـ لأول مرة ـ التفاحة انفصلت عن الشجرة وسقطت علىٰ الأرض، ففكّر في هذا الموضوع بضع سنين، فما الذي اضطره علىٰ التفكير بعدما كان يمكنه القول أنّ ذلك من باب الصدفة واللانظام؟..

لكن نيوتن كان يعتقد في أعماق فكره وعقله أنّ لقوة الجذب هذه حساب وقانون وبرنامج، وأنّ كل ما في الكون خاضع لنظام، وأنّ هذا النظام معلول لعلة أو لمبدأ ذي علم وحكمة. وعليه؛ لا بد أن يفكّر ويبحث ليكتشف قانون الجاذبية ويعرف من خلاله «إنّ كل كتلتين تجذب أحدهما الأخرىٰ بقوةٍ تتناسب طردياً مع حاصل ضربهما، وعكسياً مع مربع البعد بين مركزي ثقليهما»، فقام بالتحقيق والدراسة لبضع سنين حتىٰ تمكن من اكتشاف هذا القانون ـ فلو كان هذا العالم مادياً حقّاً، ومعتقداً بأنّ هذا الكون معلول لعلةٍ ليست ذات علم وحكمة لاقتضىٰ أن يترك البحث عن النظام والقانون بحجة أنه من الممكن أن تتفق عدة أشكال من اللانظام فتفرز هذه الحالات التي هي مظهر الجاذبية، وعلىٰ هذا ينبغي أنْ نقول إنّ الاعتقاد بنظامٍ ما كان موجوداً في أعماق فكره.

وهكذا الحال بالنسبة إلىٰ «كيلر» الذي أراد اكتشاف قوانين حركة الكواكب السيّارة داخل المنظومة الشمسية فقام بالبحث والتفكير. ويظهر أنه كان يعتقد بوجود نظام وتخطيط وبرنامج فقام بالبحث عنه، ولو لم يكن يعتقد بوجود ذلك لمَا بذل كل هذه الجهود لاكتشافه طوال سنين.

إذن؛ هذه الجهود اللامحدودة لهؤلاء العلماء والمفكرين لتكشف عن اعتقادهم بنظام شاملٍ لهذا الكون، ومن يعتقد بهذا النظام الشامل لا بد أن يكون معتقداً بأنّ مبدأ هذا الكون ذو علمٍ وحكمة.

ويمضي أنيشتاين قائلاً:

أما ذلك الشيء الذي أعطىٰ الفدائيين والمضحّين القابلية علىٰ الخوض والجهاد طوال قرونٍ مرةً أخرىٰ علىٰ الرغم من الهزائم والإخفاقات الداخلية فهو الشعور الديني الخاص.

ثم ينقل أنيشتاين عن أحد المعاصرين قولاً ذا أهميةٍ بالغة بالنسبة للجامعيين خصوصاً طلبة فروع العلوم الطبيعية المختلفة حيث يقول:

«إنّ الذين يملكون شعوراً مذهبياً عميقاً في عصر المادة هم العاملون الحقيقيون والمجدّون للعلوم فقط»!

أيّ أنّهم يعتقدون بهذا النظام ويقومون بالبحث عن أسراره، فلو لم يكن هنالك اعتقاد بالنظام لَمَا أعقبته مساعٍ وجهود.

ولو أنّ «مترلينك» لم يكن يعتقد بوجود نظام لحياة النمل لَمَا أضاع عشرين عاماً من عمره في البحث عنه؛ فاعتقاده بوجود نظام لحياة النمل وبرنامج وهدف، هو الذي دفعه للبحث عنه ومن ثمَّ تدوينه في كتاب. ولا بد لِمَنْ يعتقد بوجود نظامٍ في عالم الوجود الاعتقاد بأنّ لعلة هذا الوجود علم وحكمة، لأنه ليسَ من الممكن إيجاد هذا النظام من دون علم وحكمة.

من أجل هذا نجد أنّ أول أثرٍ يتركه الإيمان بالمذهب والاعتقاد بالله في كيان الإنسان ووجوده ما يجعله متطلعاً وباحثاً في عالم الوجود هو حمله علىٰ التفكّر في دقائق هذا الكون، لكي يثبت أنّ أصغر حوادث هذا العالم يمكن أن يكون تأثيره فعال وعميق عليه، ذلك لأنها معلولة لمبدأ ذي علم وحكمة لا محدودة، إضافة إلىٰ أنّها من صنع اليد القادرة لذلك المبدأ. فهذا النظام ليس عادياً ولا بد من التمعّن والتفكير بدقة في كل أجزاءه.

أما لو كان يعتقد بأنّ هذا النظام معلول للطبيعة الفاقدة للعلم والحكمة فلا مبرّر للتفكير والتدبّر في جزئيات هذا العالم واستخدام قواه الفكرية والعقلية.

وأول الآثار التي يتركها الاعتقاد بالله والإيمان بالمذهب علىٰ الإنسان هو إحياء القوىٰ الفكرية والعقلية..

وهنا نريد أن نصل إلىٰ نتيجةٍ هامةٍ أخرىٰ من هذا البحث، خصوصاً أنّ هذه النتيجة تتداول بين الشباب المثقف في عصرنا الحاضر وهي:

إنّنا لو نظرنا إلىٰ البرنامج الرائع لنبي الإسلام لوجدنا أنّه دعا الناس -

أيضاً ـ إلىٰ التفكّر في ظل هذا الإيمان بالمذهب والاعتقاد بالله عزّ وجلّ، حيث يقول الباري سبحانه وتعالىٰ في كتابه المجيد:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. . .﴾[1].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثم تَتَفَكَّرُوا. . .﴾[2].

وقد بلغ التفكر درجةً من الأهمية بحيث عُدَّ من أعظم العبادات في الإسلام وأفضلها من خلال الروايات الواردة عن النبي والإمام علي في كتب الحديث المعتبرة:

«أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وقدرته»[3].

«لا عبادة كالتفكّر في صنعة الله عزّ وجلّ»[4].

مكاسب حركة دينية

قد يسأل سائل: ماذا فعل المسلمون من خلال إحياء الفكر والقوىٰ الفكرية في ظلال الإيمان بالله والاعتقاد بالمذهب الحق؟

وفي الإجابة عن السؤال نقول: أنهم استطاعوا أن يرسوا أسس الحضارة اللامعة والتقدم البارز الذي جلب أنظار العالم للممالك الإسلامية لعدة قرون.

وأرىٰ من الضروري جداً أن يَلتفت شباب عصرنا الحالي إلىٰ أهمية المطالعة، خصوصاً في مجال النهضة العلمية في صدر الإسلام (أي من القرن الثاني حتىٰ القرن الخامس سيّما الكتب التي ألّفها الأجانب حول الإسلام،

---

(١) سورة آل عمران، الآيتين ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) سورة سبأ، الآية ٤٦.
(٣) ميزان الحكمة ج٧ ص٥٤٣.
(٤) ميزان الحكمة ج٧ ص٥٤٣.

ولينظروا أيَّ تحوّلٍ علمي وأيّ تقدّم في فروع العلوم المختلفة قد حصل. وهذا ما جاء به الإيمان بالمذهب والاعتقاد بالله والتفكّر، للإنسانية جمعاء.

ومن بين تلك الكتب التي أُوصي الشباب بمطالعتها وتخصيص جزءاً من وقتهم لذلك ـ فلا يَدَعُوا مطالعتهم تقتصر علىٰ كتبهم الدراسية بل ينبغي الاستفادة من الكتب المختلفة الأخرىٰ في تثقيف أنفسهم ـ كتاب «ميراث الإسلام» أو (ما يدين به الغربيون للشعوب الشرقية).

وفي الواقع أنّ هذا الكتاب فهرس لما أخذه أو استفاد منه الأوروبيون في نهضتهم العلمية من المسلمين والشعوب الشرقية. وقد قام بتأليف هذا الكتاب ثلاثة عشر أستاذاً من أساتذة جامعات لندن والمستشرقين الانجليز شرحوا فيه الخدمات التي قدّمها المسلمون وعلماء الإسلام للعلوم والعلم البشري. وقد ارتأيت أن أنقل لكم موضوعين من هذا الكتاب كوثيقة:

مَنْ هُوَ جَابِرُ بِنْ حَيَّان؟

جابر بن حيان هو أحد، علماء الإسلام الذين اشتهروا اليوم في الغرب وفيما بين الغربيين بأنه مؤسس علم الكيمياء.

فكيمياء اليوم أُخذت من كتب جابر بن حيان في الأيام الأولىٰ.

وقد تربّى جابر بن حيان فيما بين المسلمين وفي ظلال قادة الإسلام وعلىٰ رأسهم الإمام الصادق. ولننظر الآن لما يقوله الغربيون حول جابر بن حيان.

كتب الدكتور «ميرهوب» الذي يعدُّ من كبار أساتذة جامعات لندن عن جابر بن حيان قائلاً:

«عُرِفَ جابر بن حيان في كل العالم بأنه مؤسس الكيمياء عند العرب، وتوجد الآن حوالي مائة كتاب في الكيمياء من تأليف جابر بن حيان. وإنّ الآثار التي تركها جابر بن حيان علىٰ مدىٰ تاريخ الكيمياء في أوروبا بارزة وواضحة.

فقد أجرىٰ هذا الرجل الكثير من التجارب والاختبارات فضلاً عن القيام بطرح وإبداء النظريات والفرضيات الكيميائية.

ولكي نتعرف علىٰ جابر بن حيان بصورة جيدة لا بد من مطالعة كتبه العديدة في الكيمياء والتي نسخ بعضها المكتوب باللاتينية. وقد تضمّنت الكتب التي خلدت باسمه أموراً هامة ومعقّدة باتت لغزاً علىٰ العلماء والمطلعين حتىٰ هذا الحين؛ بل لم يستطع العلماء حلّ المسائل التي طُرِحَتْ في كتبه لحد الآن».

ثم يذكر الدكتور ميرهوب أموراً كثيرة حول جابر بن حيان صرفنا النظر عن بيانها مراعاةً للاختصار.

ومما يُؤسف له أنّ كتب جابر بن حيان العربية ليست متوفرة إلاّ أنّ ترجمتها اللاتينية موجودة في مكتبات أوربا!...

ويذكر أنّ مجموع الكتب التي عُثِرَ عليها من تأليف هذا المفكر الإسلامي يصل إلىٰ مائة مجلد في مختلف البحوث الكيميائية.

ولو تساءلنا عن الأسرار الكامنة وراء هذه النهضة العلمية لوجدنا أنّ ذلك يعود لحركة الشعوب المتخلّفة في ظل العقيدة الدينية. ولِمَ لا نقول الحقيقة؛ فنحن الإيرانيين كم عالم كان عندنا قبل نفوذ الإسلام في بلدنا؟ وكم عالم كأمثال بوذرجمهر يمكن إحصاءهم في تاريخ إيران القديم؟...

لكن لننظر إلىٰ ما بعد قيام النهضة الدينية للمفكرين والعلماء كأبي علي سينا وزكريا الرازي ونصير الدين الطوسي وأمثالهم؛ فكل هؤلاء العلماء والمفكرين العظام ظهروا بعد نفوذ الإسلام، ولِمَ نجانب الحقيقة والواقع إذا كان تاريخ بلدنا قبل الإسلام يشهد بأنّ عدد علماءنا كان ضئيلاً.

إنّ هذا المكسب حققه الإسلام للبشرية جمعاء ولنا ـ نحن الإيرانيين ـ بشكلٍ خاص في إطار العلم والفكر فضلاً عن إحياء الأفكار الميتة، مع إننا ـ وبلا شك ـ نمتلك استعداداً وإمكانياتٍ هائلة لكنها بحاجة إلى تربية وتوجيه وإرشاد.

لِنَتَعَرَّفَ عَلىٰ ٱبْنِ ٱلْهَيْثَمْ

والآن نريد أن نتحدث قليلاً عن الفيزيائي الكبير والعبقري المسلم «الحسن ابن الهيثم» أحد علماء القرن الرابع الهجري. وقد عاش حوالي

ثمانين عاماً امتدت من سنة ٣٥٠ وحتىٰ ٤٣٠ هجرية. وهو من أهالي البصرة، ويُكنّىٰ بـ«أبو علي»، ولديه مؤلفات عديدة. ويُعرف عند الأوربيين باسم «الحَزَن» بإبدال السين بحرف الزاي، وقد بذل جهوداً وافرة في البحث عن الضوء، وهذا ما اعترف به الدكتور «ميرهوب».

رحل ابن الهيثم إلىٰ القاهرة وذلك خلال فترة الخلافة العباسية وسعىٰ لإيجاد حلٍّ لمسألة تنظيم ارتفاع ماء النيل وهيجانه، ولمَّا لم يُوفَّق في سعيه هذا غضب عليه الخليفة العباسي آنذاك المسمىٰ «الحكم بالله»، مما اضطره إلىٰ الاختفاء لحين موت الخليفة، فكانت هذه القضية فرصة مناسبة لإعداد رسائل في الطب والفيزياء والرياضيات.

وأهم ما كتبه ابن الهيثم يتركز في بحثه عن الضوء، بيد أنّ نسخته الأصلية التي كتبها باللغة العربية فُقِدَتْ لكن الترجمة اللاتينية موجودة.

وقد ردَّ هذا العالم علىٰ فرضية إقليدس حول العين، وكتب مواضيع هامة حول الألوان وانتشار الضوء وانكساره والتجارب اللازمة لتعيين زاوية الانكسار وانعكاس الضوء، كما وتعرف نظريته فيما بين الأوروبيين باسم «قضية الحَزَن» لحد الآن.

ابْنُ سِينَا وَكُتُبه

يعترف المستشرقون الأروبيون بأنّ كتاب «القانون» لابن سينا ـ الذي يعتبر أحد كتبنا الطبية ـ قد تُرْجِمَ وَطُبِعَ ستة عشر مرة في أوربا خلال الثلاثين عاماً الأخيرة من القرن الخامس عشر فقط.

وقد تمّ إعادة طبع الكتاب حوالي عشرين مرة خلال القرن الخامس عشر، أي أنّ هذا الكتاب أُعيدت طباعته في أوربا حوالي ستة وثلاثين مرة في مدةٍ قصيرةٍ نسبياً.

وبات هذا الكتاب يُدرّس في كليات الطب الأوروبية لقرون؛ بل كان الأطباء يستلهمون من فيض هذا الكتاب أيضاً ويستعينون به في الأمور الطبية.

وإذا كانت هذه هي حصيلة العلم والمعرفة عند المسلمين، فَمِنْ أين جِيءَ بهذا الفتح؟..

إنه ظهر بعد حدوث النهضة الفكرية في العالم الإسلامي في ظل الإيمان بالمذهب والاعتقاد بالله، وإحياء القوىٰ الفكرية والعقلية وأنّ المسلمين هم الذين استطاعوا اكتشاف تلك العلوم المختلفة وإبداع ذلك التقدم اللامع.

أَهَمِيَّة ٱلْمَسْجِد

وبعد هذا، هل نعلم بأنّ التدريس والتعليم كان في المساجد آنذاك كما جاء في كتب التاريخ؛ أي أنّ المسجد ـ الذي هو المكان المتعارف لكبار السن من الرجال والنساء في عصرنا الحاضر ـ كان مركزاً لنشر العلم والثقافة؛ بل كان جامعةً.

وإذا كان علم الطب قد اقتصرت دراسته في المستشفيات فقط فإنّ بقية العلوم والمعارف كانت تُدرّس في المساجد، وهذا يعني أنّ المسلمين أحدثوا هذه النهضة العلمية في العالم من نفس هذه المساجد، والحال أننا نرىٰ البعض هنا وهناك يأتي ويقول لماذا نحن ـ المسلمين ـ متخلّفون؟

ونحن نسأل: أيُّ إسلامٍ هذا المراد به؟!..

فالمسلم هو الذي طبّق التعاليم الإسلامية واستفاد من قواه الفكرية والعقلية وجعل من مسجده جامعة ومن منزله مركزاً للفكر وأخذ علماءه دورهم في مختلف المجالات وراعىٰ الأمانة في كافة جوانب الحياة.. فهل نحن ذلك المسلم وتخلّفنا؟ أم أنّ قوانين الإسلام عُطِّلَت وبرامجه أُهمِلَتْ وَنُسِيَتْ ولم يبقَ فيما بيننا من الإسلام إلاّ المظاهر والشكليات وهذا ما جعلنا نتأخر...

بَيتُ المَقْدِس في التأريخ الإسلامي

وهنا أرىٰ من الضروري الإشارة إلىٰ قضية هامة كلّما أُفكر بها ينتابني الألم والله شهيدٌ علىٰ ما أقول.

فكلّما أُلقي نظرةً لتاريخ الحروب الصليبية أرىٰ أنّ المسلمين ـ كما يقول «گوستاولوبون» ـ كانوا في وضع غير قابل للانكسار من الناحية السياسية والعسكرية.

وليس مزاحاً أن تتحرك أوربا والعالم المسيحي دفعةً واحدة ويضعوا خلافاتهم جانباً ويحاربوا سنين طوال؛ كل ذلك ليستولوا علىٰ بيت المقدس. وقد سجّل لهم التاريخ أنهم حاربوا مائتي عام تعاقبت عليها عدة أجيال، واستمرت هذه الحروب فراح ضحيتها ملايين القتلىٰ والجرحىٰ وضاعت ملايين أخرىٰ من الأموال إلاّ أنّهم لم يُوَفَّقوا في انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين وذلك بعد مائتي عام من القتال حيث جاء صلاح الدين الأيوبي رافعاً راية الإسلام خفاقةً مرفرفةً فوق بيت المقدس وأحكمَ المسلمون سيطرتهم عليها.

فهل نحن الذين أضعنا ميراث تلك المائتي عام في ستة أيام مسلمون ـ أيضاً ـ كأولئك المسلمين؟!..

أولئك كانوا مسلمين ونحن ـ أيضاً ـ مسلمون!

وبعد كل هذا نقول لماذا نحن ـ المسلمين ـ تخلّفنا عن الآخرين؟!. نقول هذا والمسلمون مشتتون وأميّون، ليس لهم هدفاً، ولم يفهموا من الإسلام إلاّ المظاهر والشكليّات بل حتىٰ تاريخ الإسلام يجهلوه ومن هنا ترىٰ غيرهم يقوم بكتابة كتاب «محمد: النبي الذي لا بد أن يُعرف من جديد» للمسلمين ويقوم بإرساله لهم من أوربا!

والسبب في تخلّف المسلمين عن الآخرين يعود إلىٰ ابتعادهم عن الإسلام، لذا نرىٰ أنّ «المسجد الأقصىٰ» قبلة المسلمين الأولىٰ إلىٰ الآن في أيدي الأعداء ـ الذين طالت أيديهم لإحراقه.

والحق، أنّ هذا لعارٌ علىٰ المسلمين ما بعده عار، لأنّ المسلمين في البداية كانوا يقفون قبال هذا القبلة ويؤدوا صلاتهم؛ فهي القبلة الأولىٰ للمسلمين، وهي أرفع بيتٍ في الإسلام بعد الكعبة والبيت والمسجد الحرام، لكن لماذا وصل الحال بالمسلمين إلىٰ الحد الذي تسقط قبلتهم الأُولىٰ بأيدي أعدائهم الذين يقول عنهم عالم التاريخ الشهير «آمولدتواين بي» ـ وهو شخص أجنبي ـ: «لا يستطيع أحد تبرئة الذين احتلوا الأراضي الإسلامية لأنّ الحريق حصل خلال احتلالهم وأثناء حراسة ما يسمىٰ بـ«الحماية»!»

فلماذا لم يقم المسلمون أنفسهم ـ بالحفاظ علىٰ أماكنهم المقدسة؟

من هنا كان لزاماً علينا أن نستيقظ ـ والسبيل إلىٰ السعادة يكون من خلال إحياء القوىٰ الفكرية والعقلية وإدراك ضرورات العصر والوضع العالمي والاستفادة من الطاقات المختلفة والالتجاء إلىٰ ماضينا التاريخي اللامع.

يقول الباري عزّ وجلّ في كتابه العزيز:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1].

فإعمار المساجد والحفاظ علىٰ مراكز التوحيد والعظمة تتيسَّر عن طريق الذين يمتازون بسماتٍ هي: الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم الخشية إلاّ من الله!

أَهَمِيَّة المَراكِزِ الإِسْلاَمِيَّةِ لِلشَّبَاب

وإني لأَشعر باللذة كثيراً عندما أدخل هذه المراكز الشبابية لأني ألمس في وجوه مريديها المنيرة وأجسامهم النشيطة وأفكارهم المتفتحة اقترابهم من حقائق الإسلام.

وفي الواقع أننا لو كنّا نملك مثل هذه المراكز ـ التي لا شك أنها تخطو خطواتها الأُولىٰ ولا بد من إكمالها ـ في كل أنحاء البلاد، وأيقظنا الشباب من خلالها، وعمَّ إنشاء أمثال مراكز الإيقاظ هذه في مختلف الأرجاء الإسلامية كما وصل الحال بالمسلمين إلىٰ الحد الذي ذكرناه.

إنّ علينا أن لا نضيع ما ورثناه من أسلافنا، كما أنّ علينا أن نكون خَلَفاً صالحاً لهم لئلاّ تشملنا لعناتهم، وأن لا ندع أجيالنا اللاحقة تقول عنا إنّ أسلافنا لم يكونوا أهلاً لحفظ مواريث الإسلام وكانوا يفتقرون للكفاءة واللياقة والفكر فأضاعوا الأمانة!..

الزِّيَارَاتُ الْعِلْمِيَّة

وفي أحد الأيام كنّا قَد ذهبنا لزيارة بعض المؤسسات الصناعية في

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٨.

أصفهان برفقة جمعٍ من الشباب أعضاء أحد المراكز الإسلامية ومسؤولية المحترمين، فقلت: حسناً، ليذهب شبابنا ويطّلعوا علىٰ هذه المؤسسات. وقام المهندسون ـ هناك ـ باستقبالٍ رائعٍ جداً لنا، وقد تحدّثت لمدة دقيقتين أو ثلاث فقلت:

أيّها السادة.. أيّها الشباب.. عليكم بالدراسة والتحصيل العلمي لتصبحوا مهندسين وأطباء ومتخصصين فيستغني بلدكم عن الحاجة للخبراء الأجانب. قِفُوا علىٰ أقدامكم واعتمدوا علىٰ أنفسكم وعلىٰ علومكم وفكركم وثقافتكم وعقولكم النيّرة..

وكم فرحت عندما علمت أنّ تلك المؤسسة لم يكن فيها أيّ مهندس أجنبي، وحريٌّ بمؤسساتنا الأهلية والرسمية أن تنحو هذا المنحىٰ.

صَلاةُ ٱلْجَمَاعَةِ فِي سَاحَةِ ٱلرِّيَاضَة

وفي إحدىٰ الليالي جئت إلىٰ ذلك المركز الشبابي فرأيت ذلك المنظر الرائع لصلاة الجماعة تحت شبكة لعبة كرة الطائرة، فقلت: انظروا.. ما أجمل هذا المنظر!

فكما أنّ الرياضة البدنية ضرورية لتقوية وتنمية جسم الشاب ـ لذا نجد أن الإسلام حثّ علىٰ مزاولتها ـ فإنّ الصلاة هي الأخرىٰ ضرورية لترويض الروح وتصعيدها ولإيقاظ القوىٰ الفكرية والعقلية.

ومَنْ قال أنّ الإسلام وقف بوجه الرياضة؟!.. وإلاّ فما معنىٰ أنّ من جملة حقوق الأبناء التي وضعها الإسلام في برنامج علىٰ الآباء: تعليمهم الألعاب الرياضية السليمة كالرماية والسباحة والفروسية!

وهكذا نرىٰ أننا في الوقت الذي ابتعدنا عن الإسلام كل البعد نأتي ونقول لماذا نحن المسلمين متخلّفون وكأننا نطلب الإسلام ديناً!...

والحمد لله رب العالمين

الفهرس